

❖ **وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا** ﴿٣١﴾
يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ
وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ**
الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا
وَإِذْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ
وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(وَمَنْ يَقْنُتْ) تطيع (مِنْكُمُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا) قليلا أو كثيرا

(نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) مثل ما نعطى غيرها مرتين

(وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) الجنة ففقتن لله و رسوله و عملن صالحًا فعلم بذلك أجرهن.

فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ

الجنة إلى العرش 31

(يُنِسَاءَ النَّبِيِّ) خطاب لهن كلهن

(لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) الله فإنكن بذلك تفقن النساء و لا يلحقكن أحد من النساء

فكملمن التقوى بجميع وسائلها و مقاصدها. فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم فقال:-

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) في مخاطبة الرجال أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك و تتكلمن بكلام رقيق

و لم يقل: (فَلَا تَلْنِ بِالْقَوْلِ) وذلك لأن المنهى عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل و انكسارها عنده

و الخاص:-

هو الذي يطمع فيه بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع بل ربما صار فيه ترفع و قهر للخصم

فإن هذا لا يطمع فيه خصمه و لهذا مدح الله رسوله باللين فقال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ)

و قال لموسى و هارون:- (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**) دغل-مرض شهوة الزنا فإنه مستعد ينظر أدنى محرك يحركه

لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله

فإن ذلك لا تكاد تُمِيلُهُ و لا تحركه الأسباب لـ:—

1- **صحّة قلبه 2-و سلامته من المرض.**

بـخلاف مريض القلب الذى :-

1- **لا يتحمل ما يتحمل الصحيح 2-و لا يصبر على ما يصبر عليه**

فأدنى سبب يوجب يدعوهُ إلى الحرام:-

1- **يجيب دعوته 2-و لا يتعاصى عليه**

فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فإن الخضوع بالقول و اللين فيه فى الأصل مباح و لكن لما كان وسيلة إلى المحرم منع منه

و لهذا ينبغى للمرأة فى مخاطبة الرجال أن لا تليّن لهم القول.

***ينبغى للبعد إذا رأى من نفسه:-**

1- **و أنه يهش لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه**

2- **و يجد دواعى طمعه قد انصرفت إلى الحرام [فَلْيَعْرِفْ أَنْ ذَلِكَ مَرَضٌ] **فَلْيَجْتَنِهِ ذ:****

1- **في إضعاف هذا المرض 2-و حسم الخواطر الرديّة**

3- **و مجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر**

4- **و سؤال الله العصمة و التوفيق (((و أن ذلك من حفظ الفرج المأمور به))).**

*** و لما نهاهن عن الخضوع فى القول فرما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول دفع هذا بقوله:**

(**وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**) **غير غليظ و لا جاف** كما أنه ليس بليّن خاضع. **و مَعْنَى هَذَا:-**

أَنَّهَا تُخَاطَبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ - لَا تُخَاطَبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطَبُ زَوْجَهَا 32

(**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**) اقررن فيها لأنه أسلم و أحفظ لكنّ - **الزّمن بيوتكنّ فلا تخرجنّ لغير حاجة.**

و من الحوائج الشرعيّة الصلّاة في المَسْجِدِ بِشَرْطِهِ

كما قال رسول الله ﷺ: **أبي داود 565 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:**

«لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ وَ لَكِنْ لِيَخْرُجَنَّ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ (غير متطيبات)»

*** داود 567 - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ وَ بُيُوتَهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**

*** الترمذى 1173 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»**

*** داود :- 570 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:**

«صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا وَ صَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»

الاعراض الخاصة بالقلب المريض

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ)

لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى الذين لا علم عندهم و لا دين فكل هذا دفع للشر و أسبابه.

وَ كَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَ تَكْسُرُ وَ تَغْنُجُ -فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

* وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ} .

قَالَ: كَانَتْ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ وَ إِدْرِيسَ وَ كَانَتْ أَلْفَ سَنَةٍ وَ إِنَّ بَطْنَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ كَانَ أَحَدُهُمَا يَسْكُنُ السَّهْلَ وَ الْآخَرُ يَسْكُنُ الْجَبَلَ. وَ كَانَ رِجَالُ الْجَبَلِ صَبَاحًا وَ فِي النِّسَاءِ دِمَامَةٌ.

وَ كَانَ نِسَاءُ السَّهْلِ صَبَاحًا وَ فِي الرِّجَالِ دِمَامَةٌ وَ إِنَّ إِبْلِيسَ أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّهْلِ فِي صُورَةِ غُلَامٍ فَآجَرَ نَفْسَهُ مِنْهُ فَكَانَ يَخْدُمُهُ وَ اتَّخَذَ إِبْلِيسُ شَيْئًا مِثْلَ الَّذِي يُزْمَرُ فِيهِ الرَّعَاءُ فَجَاءَ فِيهِ بِصَوْتٍ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِثْلَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ فَانْتَابُوهُمْ يَسْمَعُونَ إِلَيْهِ وَ اتَّخَذُوا عِيْدًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ فَيَتَبَرَّجُ النِّسَاءُ لِلرِّجَالِ. قَالَ: وَ يَتَزَيَّنُ الرِّجَالُ لَهُنَّ وَ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَلِ هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي عِيدِهِمْ ذَلِكَ فَرَأَى النِّسَاءُ وَ صَبَاحَتَهُنَّ فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِنَّ فَنَزَلُوا مَعَهُنَّ وَ ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِنَّ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ}

(وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ)

و لما أمرهن بالتقوى عمومًا و بجزئيات من التقوى نص عليها لحاجة النساء إليها كذلك أمرهن بالطاعة خصوصًا الصلاة و الزكاة اللتان يحتاجهما و يضطر إليهما كل أحد و هما أكبر العبادات و أجل الطاعات

و في الصلاة:-

الإخلاص للمعبود

و في الزكاة:-

الإحسان إلى العبيد.... ثم أمرهن بالطاعة عمومًا فقال:-

(وَأَطِيعَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) يدخل فى طاعة الله و رسوله كل أمر أمرًا به أمر إيجاب أو استحباب.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ) بأمركن بما أمركن به و نهىكن بما نهىكن عنه

(لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ) الأذى و الشر و الخبث- اسم لكل مستقذر من عمل

يا (أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيرًا) نفوسكم- حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

أي: فاحمدوا ربكم و اشكروه على هذه الأوامر و النواهي التي أخبركم بمصلحتها

و أنها محض مصلحتكم لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجًا و لا مشقة بل لتزكى نفوسكم

و لتطهر أخلاقكم و تحسن أعمالكم و يعظم بذلك أجركم.

* وَ هَذَا نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَاهُنَا لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَ سَبَبُ النُّزُولِ دَاخِلٌ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا إِمَّا وَحْدَهُ عَلَى قَوْلٍ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى الصَّحِيحِ.

*مسلم (2424) عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: قَالَتْ عَائِشَةُ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَ عَلَيْهِ مِرْطٌ (المِرْطُ كِسَاءٌ جَمْعُهُ مِرْوُطٌ الْمِرْحَلُ هُوَ الْمَوْشَى الْمَنْقُوشُ عَلَيْهِ صُورُ رِحَالِ الْإِبِلِ) مَرَحَلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ قَالَ:

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]

*مسلم (2408) عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَ حُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ وَ عُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَ سَمِعْتَ حَدِيثَهُ وَ غَزَوْتَ مَعَهُ وَ صَلَّيْتَ خَلْفَهُ لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا حَدَّثَنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِيهِ وَ اللَّهُ لَقَدْ كَبُرَتْ سِرِّي وَ قَدِمَ عَهْدِي وَ نَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَأَقْبَلُوا وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِيْنَا خَطِيبًا مِمَّا يُدْعَى خُمًّا (اسم لغیضة على ثلاثة أميال من الجحفة غدير مشهور يضاف إلى الغیضة فيقال غدير خم) بَيْنَ مَكَّةَ وَ الْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهُ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ وَعَظَ وَ ذَكَرَ ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُوا أَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ (قال العلماء سميا ثقلين لعظمهما و كبير شأنهما وقيل لثقل العمل بها):-
أَوَّلُهُمَا:-

كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَ النُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَ اسْتَمْسِكُوا بِهِ " فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَ رَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «وَ أَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَ لَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرِّمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ قَالَ: وَ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَ آلُ عَقِيلٍ وَ آلُ جَعْفَرٍ وَ آلُ عَبَّاسٍ
قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِّمِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ 33

*و لما أمرهن بالعمل الذي هو فعل و ترك:- أمرهن بالعلم و بيبهن لهن طريقه

فقال: (وَأَذْكُرُّكُمْ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) يمتن عليهن بذلك (مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ) القرآن.

(وَالْحِكْمَةِ) أسراره و سنة رسوله. و أمرهن بذكره يشمل :-

1- ذكر لفظه بتلاوته

2- و ذكر معناه بتدبره و التفكير فيه

3- و استخراج أحكامه و حكمه

4- و ذكر العمل به و تأويله.

*اعْمَلْنَ مَا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ وَ اذْكُرْنَ هَذِهِ النُّعْمَةَ الَّتِي خَصَّصْتُ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَ لَكِنْ إِذَا كَانَ أَرْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَ هَذَا يُشَبِّهُ مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:-

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَقَالَ: "هُوَ مَسْجِدِي هَذَا".
فَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْآخِرِ.
وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَاكَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَى بِتَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَيْرًا)

يدرك أسرار الأمور و خفايا الصدور و خبايا السماوات و الأرض و الأعمال السرى و تسر.
فلطفه و خبرته يقتضى حثهن على الإخلاص و إسرار الأعمال و مجازاة الله على تلك الأعمال.

(لَطِيفًا) ذَا لُطْفٍ بِكُنَّ إِذْ جَعَلَكُنَّ فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تُتَلَّى فِيهَا آيَاتُهُ -لَطِيفٌ بِاسْتِخْرَاجِ السَّنَةِ

(خَيْرًا) بِكُنَّ إِذْ اخْتَارَكُنَّ لِرَسُولِهِ أَرْوَاجًا-خَيْرٌ مَوْضِعَهَا.

* و من معانى (اللطيف) :-

1-الذي يسوق عبده إلى الخير

2-و يعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها

3-و يسوق إليه من الرزق ما لا يدره

4-و يريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقا له إلى أعلى الدرجات و أرفع المنازل 34

*لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ و عقابهن لو قدر عدم الامتثال و أنه ليس مثلهن أحد من النساء ذكر
بقية النساء غيرهن. و لما كان حكمهن و الرجال واحداً جعل الحكم مشتركاً فقال:-

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) و هذا فى الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها. مقومات الشخصية الاسلامية

(وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) و هذا فى الأمور الباطنة من عقائد القلب و أعماله.

*دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ وَ هُوَ أَخْصُ مِنْهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الْحُجُرَاتِ: 14].

وَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَ هُوَ مُؤْمِنٌ".

فَيَسْلُبُهُ الْإِيمَانُ وَ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِاجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَخْصُ مِنْهُ

(وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ) المطيعين لله و لرسوله

الْقُنُوتُ: هُوَ الطَّاعَةُ فِي سَكُونٍ

{أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزُّمَرِ: 9]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [الرُّوم: 26]

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آلِ عِمْرَانَ: 43] {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [الْبَقَرَةِ: 238]

فَالْإِسْلَامُ بَعْدَهُ مَرْتَبَةٌ يَرْتَقَى إِلَيْهَا ثُمَّ الْقُنُوتُ نَاشِئٌ عَنْهُمَا.

(وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ) فى مقالهم و فعالهم

*هَذَا فِي الْأَقْوَالِ فَإِنَّ الصَّدَقَ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ وَ لِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لَمْ تُجَرَّبَ عَلَيْهِ كِذْبَةُ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ لَا فِي الْإِسْلَامِ

وَ هُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ كَمَا أَنَّ الْكُذْبَ أَمَارَةٌ عَلَى النِّفَاقِ وَ مَنْ صَدَقَ نَجَا

*البخارى 6094- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي (يوصل) إِلَى الْبِرِّ (اسم جامع لكل خير أي العمل الصالح الخالص من كل ذم)
وَ إِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ (يعتاد الصدق في كل أمر) حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا (يصبح الصدق صفة ذاتية له فيدخل في زمرة الصديقين ويستحق ثوابهم)

وَ إِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ (اسم جامع لكل شر أي الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصي)
وَ إِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا (صيغة مبالغة من الكذب وهو من يصحب الكذب صفة ملازمة له)

(وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ) على الشدائد و المصائب

هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَثْبَاتِ وَ هِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَ الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ
وَ تَلْقَى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَ الثَّبَاتِ وَ إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى
أَي: -أَضْعَبُهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ثُمَّ مَا بَعْدَهُ أَسْهَلُ مِنْهُ وَ هُوَ صِدْقُ السَّجِيَّةِ وَ ثَبَاتُهَا.

(وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ) في جميع أحوالهم خصوصًا في عباداتهم خصوصًا في صلواتهم

*الْخُشُوعُ: -السُّكُونُ وَ الطَّمَأْنِينَةُ وَ التَّوَدُّدُ وَ الْوَقَارُ وَ التَّوَاضُّعُ. وَ الْحَامِلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ وَ مَرَاقِبَتُهُ
كَمَا فِي الْحَدِيثِ: اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

(وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ) فرضًا و نفلا

*الْصَّدَقَةُ: هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاوِجِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَ لَا كَاسِبَ
يُعْطُونَ مِنْ فَضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لِلَّهِ وَ إِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ
وَ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ " فَذَكَرَ مِنْهُمْ:
وَ رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ "
وَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: الترمذى:- 614 عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
وَ الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ

(وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ) شمل ذلك الفرض و النفل

* وَ لَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ - كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

*البخارى 1905- عَنْ عَلْقَمَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ (هي في اللغة الجماع والتقدير من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤن النكاح وقيل المراد

بالباء هنا مؤن الزواج) فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ (أدعى إلى غض البصر) وَ أَحْصَنُ لِلْفَرْجِ (أدعى إلى إحسان الفرج أي حفظه من الزنا)

وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ (قاطع للشهوة)»

-نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ:-(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ)

عن الزنا و مقدماته-أَي: عَنِ الْمَحَارِمِ وَ الْمَآثِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: 5-7] .

(وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) في أكثر الأوقات خصوصًا:-

أوقات الأوراد المقيدة كالصباح و المساء و أدبار الصلوات المكتوبات

*مسلم:- (2676) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتُ»

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً)

أى: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة و المناقب الجليلة التي هي ما بيــــن:-

1-اعتقادات 2-و أعمال قلوب 3-و أعمال جوارح 4-و أقوال لسان

5-و نفع متعدد و قاصر 6-و ما بين أفعال الخير و ترك الشر

الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله ظاهره و باطنه بالإسلام و الإيمان و الإحسان.

فجازاهم على عملهم « بِالْمَغْفِرَةِ » لذنوبهم لأن الحسنات يذهبن السيئات

(وَأَجْرًا عَظِيمًا) لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه مما لا عين رأت و لا أذن سمعت

و لا خطر على قلب بشر نسأل الله أن يجعلنا منهم.

*الصحيح المسند من أسباب النزول: الترمذى 3211 -عَنْ أُمِّ عُمَارَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ أَنَّهَا أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ:- مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا لِلرِّجَالِ وَ مَا أَرَى النِّسَاءَ يُذَكَّرْنَ بِشَيْءٍ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [الأحزاب: 35]

*النسائي 11341 عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَيْبَةَ رضي الله عنه

قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

مَا لَنَا لَا نُذَكَّرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذَكَّرُ الرَّجَالُ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي ذَاتَ يَوْمٍ ظَهَرًا إِلَّا نِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ

قَالَتْ: وَ أَنَا أُسْرَحُ رَأْسِي فَلَفَفْتُ شَعْرِي ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةِ بَيْتِي فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ

فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} [الأحزاب: 35] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 35] 35

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ لِمَنْ تَخْتَارُ مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش و ما فيه من عبر 36-40

(وَمَا كَانَ) لا ينبغي و لا يليق (لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

ممن اتصف بالإيمان إلا:-

1- الإسراع في مرضاة الله و رسوله 2- و الهرب من سخط الله و رسوله

3- و امتثال أمرهما 4- و اجتناب نهيهما

(إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) من الأمور و حتمًا به و ألزما به

(أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) أى: الخيارات هل يفعلونه أم لا؟

بل يعلم المؤمن و المؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه و بين أمر الله و رسوله.

* فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ بِشَيْءٍ :-

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُّخَالَفَتُهُ وَ لَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَاهُنَا وَ لَا رَأْيَ وَ لَا قَوْلَ

كقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

[النساء: 65]

* وَ لِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) بَيِّنًا

لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم

فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله و رسوله و هو:- الإيمان

ثم ذكر المانع من ذلك:-

و هو **التخويـف بالضلـال** الدال على العقوبة و النكال.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63] .

و كان سبب نزول هذه الآيات :-

أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه و أن أزواجهم لا جناح على من تبناهم في نكاحهن. و كان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله و فعلاً و إذا أراد الله أمراً جعل له سبباً و كان زيد بن حارثة يدعى « **زيد بن محمد** » قد تبناه النبي ﷺ فصار يدعى إليه حتى نزل (**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ**) فقيل له: « **زيد بن حارثة** » و كانت تحت زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله ﷺ و كان قد وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها فقدر الله أن يكون بينها و بين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها **36**

(**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ**) بالإسلام و متابعة الرسول

(**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**) بالعنق حين جاءك مشاوراً في فراقها :-

وَ كَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ الشَّانِ جَلِيلَ الْقَدْرِ حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: -الْحَبُّ وَ يُقَالُ لِابْنِهِ أَسَامَةٌ:-
الْحَبُّ ابْنُ الْحَبِّ

وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةِ -فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ أَوْ فَوْقَهَا ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا فَجَاءَ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ نَاصِحًا لَهُ وَ مَخْبِرًا بِمَصْلَحَتِهِ مَعَ وَقْعِهَا فِي قَلْبِكَ:-

(**أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**) لا تفارقها و اصبر على ما جاءك منها

(**وَاتَّقِ اللَّهَ**) تعالى في أمورك عامة و في أمر زوجك خاصة فإن التقوى تحت على الصبر و تأمر به.

(**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**) الذي أخفاه أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ

* جاء في الصحيح المسند من أسباب النزول: البخاري

4787 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: { **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** } [الأحزاب: 37]

نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ

* أحمد 26041 - عَنْ عَامِرٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ

لَكُنَّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى نَفْسِهِ { **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ**

مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [الأحزاب: 37] إِلَى قَوْلِهِ { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** } [النساء: 47]

(**وَتَخْشَى النَّاسَ**) في عدم إبداء ما في نفسك

(وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ^ط) و أن لا تباليهن شيئاً

(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا) طابت نفسه و رغب عنها و فارقها

(رَوَّجْنَاكَهَا)

*مسلم (1428) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَزَيْدٍ: فَادْكُرْهَا عَلَى (فاخطبها لي من نفسها)

قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا وَ هِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا (تجعل في عجينها الخمر - و تخمير العجين تركه ليجود)

قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي (أنه هابها واستجلها من أجل إرادة النبي ﷺ تزوجها فعاملها معاملة من تزوجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة)

حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (أي من أجل ذلك) ذَكَرَهَا فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي

(رجعت وكان جاء إليها ليخطبها وهو ينظر إليها على ما كان من عادتهم وهذا قبل نزول الحجاب فلما غلب عليه الإجلال تأخر وخطبها وظهره إليها لتلا يسبقه النظر إليها)

فَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُكَ قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي

فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا (موضع صلاتها من بيتها) وَ نَزَلَ الْقُرْآنُ أَى الْآيَةُ {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا رَوَّجْنَاكَهَا}

وَ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ قَالَ فَقَالَ:

وَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا (رأيت أنفسنا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَطْعَمَنَا الْخُبْزَ وَ اللَّحْمَ حِينَ امْتَدَّ النَّهَارُ (ارتفع)

فَخَرَجَ النَّاسُ وَ بَقِيَ رَجُلٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطَّعَامِ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ اتَّبَعْتُهُ

فَجَعَلَ يَتَتَبَعُ حُجْرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَ يَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟

قَالَ: فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أَخْبَرَنِي

قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ فَذَهَبَتْ أَدْخُلُ مَعَهُ فَأَلْقَى السِّتْرَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ وَ نَزَلَ الْحِجَابُ

قَالَ: وَوَعِظَ الْقَوْمَ مِمَّا وَعِظُوا بِهِ زَادَ ابْنُ رَافِعٍ فِي حَدِيثِهِ:

{لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهُ} [الأحزاب: 53] إِلَى قَوْلِهِ {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}

و إنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة

و هى: (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ)

حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:- ابن سعد -عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال :-

نزلت في زينب بنت جحش {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا رَوَّجْنَاكَهَا}

قال فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ تقول: زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات

و لما كان قوله: (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ) اثم و ذنب

(فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) في أن يتزوجوا من زوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن

*عاماً ففى جميع الأحوال و كان من الأحوال ما لا يجوز ذلك و هى قبل انقضاء وطره منها

قيد ذلك بقوله: (إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا)

حاجتهم- و لم يبق له رغبة فيها لتعاليلها عليه بشرف نسبها و محتد آبائها.

وَ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: "زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ"

فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ هَذِهِ النَّسَبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَ لِهَذَا قَالَ فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: {وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ} [النِّسَاء: 23] لِيَحْتَرِزَ مِنَ الْإِبْنِ الدَّعَى فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ.

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) لا بد من فعله و لا عائق له و لا مانع.

*وَ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ حَتَّمَهُ وَ هُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ كَانَتْ زَيْنَبُ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ.

و في هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فــــوائد:-

1-الثناء على زيد بن حارثة و ذلك من وجهين: -

1-1 :- أن الله سماه في القرآن و لم يسم من الصحابة باسمه غيره.

2-1 :- أن الله أخبر أنه أنعم عليه أى: بنعمة الإسلام و الإيمان.

و هذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهراً و باطناً و إلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

2- أن المعتق في نعمة المعتق.

3- جواز تزوج زوجة الدعي كما صرح به.

4- أن التعليم الفعلى أبلغ من القولى خصوصا إذا اقترن بالقول فإن ذلك نور على نور.

5- أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته و مملوكته و محارمه

إذا لم يقترن بها محذور لا يآثم عليها العبد و لو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها

لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما أو يتسبب بأى سبب كان لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

6- أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين فلم يدع شيئا مما أوحى إليه إلا و بلغه حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه.

و هذا يدل على أنه رسول الله ﷺ و لا يقول إلا ما أوحى إليه و لا يريد تعظيم نفسه.

7- أن المستشار مؤتمن يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير

و لو كان له حظ نفس فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه و غرضه.

8- أن من رأى الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال فهو أحسن

من الفرقة.

9- أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس و أنها أحق منها و أولى.

10- فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة و لا شهود

و لهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ و تقول زوجكن أهاليكن و زوجي الله من فوق سبع سماوات.

11- **أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ زَوْجٍ لَا يَجُوزُ نِكَاحُهَا** و لا السعى فيه و في أسبابه حتى يقضي زوجها وطره منها و لا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته أو في حقه الذي له وطر إليها و لو من بعض الوجوه **37**

(**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ**) إثم و ذنب .

(**فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**) فيما أحل له و أمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة .

أى: قدر له من الزوجات فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله

هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه و أنه طعن بما لا مطعن فيه

و لهذا قال :- (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**)

هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرْهُمْ بِشَيْءٍ وَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ

(**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**) لا بد من وقوعه **38**

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا و هذه سنتهم و عاداتهم و أنهم

(**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ**) فيتلون على العباد آيات الله و حججه و براهينه و يدعونهم إلى الله

(**وَيَخْشَوْنَهُ**) وحده لا شريك له

(**وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**)

فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها و قاموا بها أتم القيام

و هو: دعوة الخلق إلى الله و الخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور و ترك كل محظور دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه .

(**وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**) محاسباً عباده مراقباً أعمالهم . و عُلِمَ من هذا أن النكاح من سنن المرسلين **39**

(**مَا كَانَ**) لم يكن الرسول (**مُحَمَّدٌ**) ﷺ

(**أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**) أيها الأمة فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب .

* و لما كان هذا النفي عاماً في جميع الأحوال إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره أى: لا أبوة نسب ولا أبوة ادعاء

* **نَهَى تَعَالَى أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا: "زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ" أَيْ: لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَاهُ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرَ حَتَّى بَلَغَ الْحُلُمَ فَإِنَّهُ وَلِدَ لَهُ:-**

الْقَاسِمُ وَ الطَّيِّبُ وَ الطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ فماتوا صغاراً

وَوُلِدَ لَهُ :- **إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ** فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا
وَوُلِدَ لَهُ مِنْ خَدِيجَةَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ :- **زَيْنَبُ وَرُقِيَّةُ وَأُمُّ كُلْثُومُ وَفَاطِمَةُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ
فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ثَلَاثٌ وَتَأَخَّرَتْ فَاطِمَةُ حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَهُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.
* وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم و أزواجه أمهاتهم فاحترز أن يدخل في هذا النوع
بعموم النهي المذكور

فقال: **(وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ)** هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع المتهتدى به المؤمن له الذي
يجب تقديم محبته على محبة كل أحد الناصح الذي لهم أى: للمؤمنين من بره و نصحه كأنه أب لهم.
* **كَهْوَلِهِ: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [الأنعام: 124]

(وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ) فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده و إذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى
و الآخرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي و لا ينعكس.
* البخارى 3535 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَ أَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ
فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَ يَعْجَبُونَ لَهُ وَ يَقُولُونَ هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبَنَةَ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَ أَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ
* مسلم (523) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ:-**

- 1- **أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** (جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة و كلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني)
- 2- **وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ**
- 3- **وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ**
- 4- **وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَ مَسْجِدًا**
- 5- **وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً**
- 6- **وَ خُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**

الامر بكثرة تسبيح الله و ذكره 41-44

(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

قد أحاط علمه بجميع الأشياء و يعلم حيث يجعل رسالاته و من يصلح لفضله و من لا يصلح **40**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا

يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرا كثيرا **من:-** تهليل و تحميد و تسبيح و تكبير

و غير ذلك **من:-** كل قول فيه قرينة إلى الله

و أقل ذلك أن يلازم الإنسان:-

أوراد الصباح و المساء و أدبار الصلوات الخمس و عند العوارض و الأسباب.

○ و ينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل
و هو مستريح و داع إلى محبة الله و معرفته و عون على الخير و كف اللسان عن الكلام القبيح.

* الترمذي 3377 - عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«أَلَا أُتَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَ أَرْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَ أَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَ الْوَرِقِ وَ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَ يَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»

*أحمد 17680 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَغْرَابِيَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا:-

مَنْ خَيْرُ الرِّجَالِ يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَ حَسَنَ عَمَلُهُ

وَ قَالَ الْآخَرُ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا فَبَابَ نَتَمَسَّكَ بِهِ جَامِعٌ؟

قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ

*إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ عَذْرِ غَيْرِ الذِّكْرِ

فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَ لَمْ يَعْذِرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ

فَقَالَ: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ فَيَا مَّا وَقُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النِّسَاء: 103] بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ فِي السَّفَرِ وَ الْحَضَرِ

وَ الْغِنَى وَ الْفَقْرَ وَ الصَّحَّةَ وَ السَّقَمَ وَ السِّرَّ وَ الْعِلَانِيَّةَ وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ 41

(وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أول النهار وآخره لفضلها و شرفها و سهولة العمل فيها.

*عِنْدَ الصَّبَاحِ وَ الْمَسَاءِ كَقَوْلِهِ:-

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الرُّوم: 17-18] 42

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ) هَذَا تَهْنِئَةٌ إِلَى الذِّكْرِ -أَي:- إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرْكُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البَقَرَةُ: 151-152]

*البخاري 7405 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَ أَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي

وَ إِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَ إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا

وَ إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَ إِنْ أَتَانِي يَمْسِحُ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً "

وَ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ :- ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ -وَ قَالَ غَيْرُهُ:- الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ: الرَّحْمَةُ

وَرَدَّ بِقَوْلِهِ: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} وَ قَدْ يُقَالُ: لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَمَلَائِكَتُهُ) وَ أَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ:- فَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَ الْإِسْتِغْفَارِ

كَقَوْلِهِ: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

وَعِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} [غَافِرٍ: 7-9]

*فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْكُمْ هُوَ وَ مَلَائِكَتُهُ.

بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَ ثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ وَ دُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ) الْجَهْلِ وَ الضَّلَالِ (إِلَى النُّورِ) نور الهدى وَ الْيَقِينِ.

(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ

أَمَّا فِي الدُّنْيَا:-

- 1- فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهِلَهُ غَيْرُهُمْ
- 2- وَ بَصَّرَهُم الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَ حَادَّ عَنْهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ الْبِدْعَةِ وَ أَشْيَاعِهِمْ مِنَ الطَّغَامِ .

3- و من رحمته بالمؤمنين و لطفه بهم:- أن جعل من صلاته عليهم و ثنائه و صلاة ملائكته و دعائهم

ما يخرجهم من ظلمات الذنوب و الجهل إلى:- نور الإيمان و التوفيق و العلم و العمل

*فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين تستدعي منهم :-

1-شكرها

2-و الإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم و رحمهم

و جعل حملة عرشه أفضل الملائكة و من حوله يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون للذين آمنوا فيقولون:

(رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقُورُ الْعَظِيمُ) فهذه رحمته و نعمته عليهم في الدنيا.

وَأَمَّا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ:-

- 1-فَأَمَنَهُمْ مِنَ الْقَرْعِ الْأَكْبَرِ
- 2-وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ يَتْلَقُونَهُمْ بِالْبَشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَ رَأْفَتِهِ بِهِمْ

43

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾

آية في كتاب الله تُبَكِّينِي، فعندما أرى منكراً أضعف عن إنكاره أو أسكت؛

أتذكر قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا

إِلَّا اللَّهَ﴾^(١)، تأملتُها أوّل مرة وأنا أبكي: كيف لا أخشى الله وحده وهو مراقب

لي، وحاولت فعلاً تربية نفسي عند رؤية المنكر أن لا أخشى ولا أخاف إلا الله،

فأصبحتُ عندما أنصح من حولي إذا انتابني شعور بالخوف أتذكر تلك الآية:

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

.....

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
 وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾
 وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَكْفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوْنَهَا
 فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ
 وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ
 الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
 خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

(تَحِيَّتُهُمْ) من الله تعالى (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ) يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمًا} [يس: 58]

(وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) الْجَنَّةُ وَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَ الْمَشَارِبِ وَ الْمَلَابِسِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمَنَاجِحِ وَ الْمَلَذِّ
 وَ الْمَنَاطِرِ وَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَ لَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

○ و أما رحمته بهم في الآخرة فأجل رحمة و أفضل ثواب و هو:-

1- الفوز برضا ربهم 2- و تحيته 3- و استماع كلامه الجليل 4- و رؤية وجهه الجميل

5- و حصول الأجر الكبير الذي لا يدرى و لا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياها 44

مهمة النبي ﷺ و بعض صفاته 45-48

(يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ)

* البخارى 4838 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ:-

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45]

قَالَ فِي التَّوْرَةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا لِّلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَ رَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ
 لَيْسَ بِفَظٍّ وَ لَا غَلِيظٍ وَ لَا سَخَابٍ بِالْأَسْوَاقِ وَ لَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ
 وَ لَكِنْ يَغْفُو وَ يَصْفَحُ وَ لَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا:-
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَ آذَانًا صُمًّا وَ قُلُوبًا غُلْفًا "

* هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته و زبدها و أصولها التي اختص بها

و هي خمسة أشياء:

1- كونه (شَهِيدًا) أى: شاهداً على أمته بما عملوه من خير و شر

(شَهِيدًا) لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}

كما قال تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143]

{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: 41] فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

2+3- كونه (وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

و هذا يستلزم ذكر المبشر و المنذر و ما يبشر به و ينذر و الأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشِّر هم:-

المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان و العمل الصالح و ترك المعاصي لهم البشرى فى الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوى و دبرى رتب على الإيمان و التقوى و فى الأخرى بالنعيم المقيم.

و ذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال و خصال التقوى و أنواع الثواب.

و المنذر هم:-

المجرمون الظالمون أهل الظلم و الجهل لهم النذارة فى الدنيا من العقوبات الدنيوية و الدينية:- المترتبة على الجهل و الظلم

و فى الآخرى:- بالعقاب الويل و العذاب الطويل.

و هذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب و السنة المشتمل على ذلك.

4- كونه (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ) أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم و يسوقهم لكرامته و يأمرهم بعبادته التي خلقوا لها

و ذلك يستلزم:-

1- استقامته على ما يدعو إليه

2- و ذكر تفاصيل ما يدعو إليه بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة و تنزيهه عما لا يليق بجلاله و ذكر أنواع

العبودية

3- و الدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه و إعطاء كل ذي حق حقه

4- و إخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه و تعظيمها كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس فى هذا المقام

و ذلك كله (بِإِذْنِهِ) تعالى له فى الدعوة و أمره و إرادته و قدره.

5- كونه (وَسِرَاجًا مُنِيرًا) أمرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَ إِضَاءَتِهَا

* و ذلك يقتضي أن الخلق فى ظلمة عظيمة لا نور يهتدى به فى ظلماتها و لا علم يستدل به فى جهالاتها حتى

جاء الله بهذا النبي الكريم

فأضاء الله به تلك الظلمات و علم به من الجهالات و هدى به ضلالا إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق فمشوا خلف هذا الإمام و عرفوا به الخير و الشر

و أهل السعادة من أهل الشقاوة و استناروا به لمعرفة معبودهم و عرفوه بأوصافه الحميدة و أفعاله السديدة
و أحكامه الرشيدة⁴⁶

و قوله: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)

ذكر في هذه الجملة المبشّر و هم المؤمنون و عند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة.

و ذكر المبشّر به:- و هو الفضل الكبير أى: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره مــــن:-

1-النصر في الدنيا

2-و هداية القلوب

3-و غفران الذنوب

4-و كشف الكروب

5-و كثرة الأرزاق الدّارة

6-و حصول النعم السارة

7-و الفوز برضا ربهم و ثوابه

8-و النجاة من سخطه و عقابه.

و هذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط
المستقيم

و هذا من جملة حكم الشرع كما أن من حكمه أن يذكر في مقام الترهيب العقوبات المترتبة على ما يرهّب منه

ليكون عوناً على الكف عما حرم الله⁴⁷

* و لما كان ثمّ طائفة من الناس مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل و أتباعهم و هم المنافقون

الذين أظهروا الموافقة في الإيمان و هم كفرة فجرة في الباطن و الكفار ظاهراً و باطناً:-

نهى الله رسوله عن طاعتهم و حذره ذلك فقال:

(وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) فى كل أمر يصد عن سبيل الله

(وَدَعِ أَذْنَهُمْ) لكن لا يقتضى هذا أذاهم بل لا تطعهم

فإن ذلك جالب لهم و داع إلى قبول الإسلام و إلى كف كثير من أذيتهم له و لأهله.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فى إتمام أمرك و خذلان عدوك

حكم الطلاق قبل المساس

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) تُوكَلُ إليه الأمور المهمة فيقوم بها و يسهلها على عبده⁴⁸

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) صدّقوا الله ورسوله و عملوا بشرعه

(إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) إذا عقدتم على النساء و لم تدخلوا بهن (ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ)

(مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) تجمعهن

(فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا) تحصونها عليهن

(فَمَتَّعُوهُنَّ) فأعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوسع جبراً لخواطرهن

(وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

خلوا سبيلهن مع الستر الجميل دون أذى أو ضرر من غير مخاصمة و لا مشاتمة و لا مطالبة و لا غير ذلك.

*الْمُتَّعَةُ هَاهُنَا أَعْمٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى أَوْ الْمُتَّعَةُ الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِيَ لَهَا قَالَ

اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [البقرة: 237]

وَ قَالَ { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَعَّرِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ

مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ } [البقرة: 236]

*البخارى 5256 - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ وَ أَبِي أُسَيْدٍ

قَالَا: «تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَّاحِيلَ فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَكَانَتْهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ فَأَمَرَ أَبَا

أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَ يَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقِيَيْنِ»

*قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:-

إِنْ كَانَ سَمِيَ لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَمِيَ لَهَا صَدَاقًا فَأَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَ يُسْرِهِ

وَ هُوَ السَّرَّاحُ الْجَمِيلُ

فوائد و درر:

1- يدل على جواز الطلاق لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلهم عليه و لم يؤنبهم مع تصدير الآية

بخطاب المؤمنين. و على جوازه قبل المسيس كما قال في الآية الأخرى

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ)

2- و على أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع و على أن

عليها العدة بعد الدخول.

3- و هل المراد بالدخول و المسيس الوطء كما هو مجمع عليه؟

أو و كذلك الخلوة و لو لم يحصل معها و طء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون و هو الصحيح.

فمن دخل عليها و طئها أم لا إذا خلا بها و جب عليها العدة.

4- و على أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره و على المقتر قدره

و لكن هذا إذا لم يفرض لها مهر فإن كان لها مهر مفروض فإنه إذا طلق قبل الدخول تَنَصَّفَ المهر و كفى عن

المتعة

5- و على أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمد فيه كل منهما الآخر. و لا يكون غير جميل فإن في ذلك من الشر المرتب عليه من قرح كل منهما بالآخر شيء كثير.

6- و على أن العدة حق للزوج لقوله: (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا) دل مفهومه أنه لو طلقها بعد المسيس كان له عليها عدة و على أن المفارقة بالوفاة تعدد مطلقاً لقوله: (ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ) الآية.

7- و على أن من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات بموت أو حياة عليهن العدة.

8- الْمَرْأَةُ إِذَا طَلَّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا فَتَذْهَبُ فَتَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مِنْ شَاءَتْ وَ لَا يُسْتَتْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا فَإِنَّهَا تَعْتَدُ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا 49

يقول تعالى ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك فيه هو و المؤمنون و ما ينفرد به و يختص:-

(يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَنَا) أبخنا (لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّ ءَاتَيْتَ) أعطيتهن (أَجُورَهُنَّ) مهورهن من الزوجات و هذا من الأمور المشتركة بينه و بين المؤمنين فإن المؤمنين كذلك يباح لهم ما آتوهن أجورهن من الأزواج.

(و) كذلك أحلنا لك (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) الإماء التي ملكت

جانب من خصوصيات النبي ﷺ 50-52

(مِمَّا أَفَاءَ) أنعم (اللَّهُ عَلَيْكَ) (وَأَبَاحَ لَكَ التَّسَرَّى مِمَّا أَخَذْتَ مِنْ غَنِيمَةِ الْكُفَّارِ مِنْ عِبِيدِهِمْ وَ الْأَحْرَارِ مِنْ لَهْنِ زَوْجِ مِنْهُمْ وَ مِنْ لَا زَوْجَ لَهُنَّ وَ هَذَا أَيْضًا مُشْتَرَكٌ. وَ قَدْ مَلَكَ:-

1- صَفِيَّة

2- وَ جُؤَيْرِيَّةٌ فَأَعْتَقَهُمَا وَ تَزَوَّجَهُمَا.

3- وَ مَلِكٌ رِيحَانَةَ بِنْتِ شَمْعُونِ النَّصْرِيَّةِ

4- وَ مَارِيَةَ الْقُبَيْطِيَّةِ أُمُّ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

و كذلك من المشترك قوله (وَبَنَاتِ عِمَّاكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ)

* هَذَا عَدْلٌ وَ سَطْرٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَ التَّفْرِيطِ

فَإِنَّ النَّصَارَى:- لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا

وَ الْيَهُودُ:- يَتَزَوَّجُ أَحَدُهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَ بِنْتَ أُخْتِهِ

فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهِذِهِ الْإِفْرَاطِ النَّصَارَى

فَأَبَاحَ:- بِنْتَ الْعَمِّ وَ الْعَمَّةِ وَ بِنْتَ الْخَالِ وَ الْخَالَه

وَ تَحْرِيْمَ:- مَا فَرَطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَ الْأُخْتِ وَ هَذَا بَشْعٌ فَظِيحٌ.

* وَ إِنَّمَا قَالَ: (وَبَنَاتِ عِمَّاكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ) فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لِشَرْفِهِ وَ جَمَعَ الْإِنَاثَ

لِنَقْصِهِنَّ كَقَوْلِهِ: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل: 48] {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: 257]

*شمل العم و العمة و الخال و الخالة القريين و البعدين و هذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل كما تقدم في سورة النساء فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع و ما عداهن من الفروع مطلقاً و الأصول مطلقاً و فروع الأب و الأم و إن نزلوا و فروع من فوقهم لصلبه فإنه لا يباح.

و قوله (الَّتِي هَاجَرَنَ مَعَكَ) قيد لحل هؤلاء للرسول كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية و أما غيره ﷺ فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

(و) أحلنا لك (وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) بمجرد هبتها نفسها

تعرض نفسها على النبي ﷺ أن يتزوجها إذا رغب بدون مهر نظله. و قيل من هؤلاء الواهبات خولة بنت حكيم و أم شريك و فاطمة بنت شريح و زينب بنت خزيمة و ميمونة بنت الحارث و ليلى بنت الحطيم رضى الله عنهن (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا) هذا تحت الإرادة و الرغبة

(خَالِصَةً لَكَ) (بَغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ).

وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَوَالِي فِيهَا شَرْطَانِ

قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) [هود: 34] وَ كَقَوْلِ مُوسَى: {يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 84] .

*البخارى 2310 - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَكَ مِنْ نَفْسِي (جعلت أمري إليك إن شئت تزوجتني وإن شئت زوجتني لمن رأيت) فَقَالَ رَجُلٌ: زَوَّجْنِيهَا قَالَ: «قَدْ زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ (على أن تعلمها ما تحفظ من القرآن)

*البخارى 5087 - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ أَهَبُ لَكَ نَفْسِي قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهَا وَ صَوَّبَهُ ثُمَّ طَاطَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ فَلَمَّا رَأَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضَ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَرَوَّجْنِيهَا فَقَالَ: «وَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟»

قَالَ: لَا وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «أَذْهَبَ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا»

فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا وَ اللَّهُ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»

فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ وَ لَكِنْ هَذَا إِزَارِي -

قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِذَاءٌ - فَلَهَا نِصْفُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ

وَ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ» فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُوَلِّيًا

فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» قَالَ: مَعِيَ سُورَةٌ كَذَا وَ سُورَةٌ كَذَا عَدَّدَهَا

فَقَالَ: «تَفَرَّوْهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «أَذْهَبَ فَقَدْ مَلَكَتْكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»

*البخارى 4788 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

«كُنْتُ أَغَارُ (أعيب) عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ أَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟»

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (تُزْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ قُلْتُ: مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يَسَارِعُ فِي هَوَاكَ (يحقق لك مرادك بلا تأخير)

(مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) يعرى: إباحة الموهبة

* لَا تَحِلُّ الْمُوْهُوبَةُ لِغَيْرِكَ وَ لَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا.
 * أَيْ: إِنَّهَا إِذَا فَوَّضَتْ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ لَهَا عَلَيْهِ بِهَا مَهْرٌ مِثْلُهَا
 كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَزْوِيجِ بِنْتِ وَاشِقٍ لَمَّا فَوَّضَتْ فَحَكَمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَدَاقٍ مِثْلِهَا لَمَّا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَ الْمَوْتُ وَ الدُّخُولُ سَوَاءً فِي تَقْرِيرِ الْمَهْرِ وَ ثُبُوتِ مَهْرِ الْمِثْلِ فِي الْمَفْوُضَةِ لِغَيْرِ النَّسَاءِ ﷺ
 (قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ) ما أوجبنا على المؤمنين

(فِي أَزْوَاجِهِمْ) بألا يتزوجوا إلا أربع نسوة

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) بلم شأوا من الإماء

و اشتراط الولي و المهر و الشهود عليهم فَلَمْ نُوجِبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ و لكننا رخصنا لك في ذلك و وسعنا عليك ما لم يُوسَّعَ على غيرك

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ) لئلا يضيق صدرك في نكاح مَنْ نكحت من هؤلاء الأصناف

* و هذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ و تكريمه له

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لذنوب عباده المؤمنين

(رَحِيمًا) بالتوسعة عليهم

لم يزل متصفًا بالمغفرة و الرحمة و ينزل على عباده من مغفرته و رحمته و جوده و إحسانه ما اقتضته حكمته
 و وجدت منهم أسبابه 50

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عِيْنَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١ ﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢ ﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ٥٣ ﴾ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَانٍ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ٥٤ ﴾

﴿ إِن تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٥٤ ﴾

*الصحيح الممسند من أسباب النزول: البخارى 4788 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَغَارُ (أُعِيبُ) عَلَى اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ أَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا؟» فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ قُلْتُ: - مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ (يُحَقِّقُ لَكَ مَرَادَكَ بِلَا تَأْخِيرٍ)

(تَرْجِي) (تؤخر) (مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ) من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك و لا تبيت عندها * مِنَ الْوَاهِبَاتِ أَنْفُسِهِنَّ - مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَرَكَ الْقِسْمَ لَهُنَّ فَتَقْدِّمَ مَنْ شِئْتَ وَ تُؤَخِّرَ مَنْ شِئْتَ وَ تَجَامِعَ مَنْ شِئْتَ وَ تَتَرَكَ مَنْ شِئْتَ. * اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَ فِي النِّسَاءِ اللَّاتِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمَ.

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ}

أَيُّ: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الْحَرَجَ فِي الْقِسْمِ فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ وَ إِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ ثُمَّ مَعَ هَذَا أَنْتَ تَقْسِمُ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ فَرَحَنَ بِذَلِكَ وَ اسْتَبَشَرْنَ بِهِ وَ حَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ وَ اعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِكَ لَهُنَّ وَ تَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ وَ إِنْصَافِكَ لَهُنَّ وَ عَدْلِكَ فِيهِنَّ.

* عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءَ إِلَّا ذَاتَ مَحْرَمٍ وَ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}

* فَجَعَلَتْ هَذِهِ نَاسِخَةً لِلَّتِي بَعْدَهَا فِي التَّلَاوَةِ كَأَيَّتِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ فِي الْبَقَرَةِ الْأُولَى نَاسِخَةً لِلَّتِي بَعْدَهَا

(وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) (تضمها و تبيت عندها).

(و) مع ذلك لا يتعين هذا الأمر

*مَنْ شِئْتَ قَبْلَتَهَا وَمَنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا وَمَنْ رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوْيَتْهَا

وَلِهَذَا قَالَ:- (وَمَنْ أَبْغَيْتَ) أَنْ تَوِيَّهَا

(مِمَّنْ عَزَلْتَ) وَمَنْ طَلَبْتَ مِمَّنْ أَخَرْتَ قَسَمَهَا

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ) فَلَا إِثْمَ عَلَيْكَ فِي هَذَا

○ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله و قال كثير من المفسرين:-

إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجى من يشاء و يؤوى من يشاء أى:-

إن شاء قبل من وهبت نفسها له و إن شاء لم يقبلها و الله أعلم

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال: (ذَلِكَ)

التخيير-التوسعة عليك و كون الأمر راجعاً إليك و بيدك و كون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك

(أَدْنَى) أَقْرَبَ (أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ) إِلَى أَنْ يَفْرَحْنَ وَ لَا يَحْزَنَ

(وَيَرْضَيْنَ) لَظَنَ

(بِمَاءِ أَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) قَسَمْتَ لَهُنَّ -لَعَلَّهِنَّ أَنْكَ لَمْ تَتْرَكَ وَاجِبًا وَ لَمْ تَفْرُطْ فِى حَقِّ لَازِمٍ.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ مِمَّا لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهُ

ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة و المستحبة و عند المزاحمة فى الحقوق فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله لتطمئن قلوب زوجاتك.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا) بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ

و من علمه:- أن شرع لكم ما هو أصلح لأموالكم و أكثر لأجوركم.

(حَلِيمًا) يَحْلُمُ وَ يَغْفِرُ-لا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

و من حلمه:- أن لم يعاقبكم بما صدر منكم و ما أصرت عليه قلوبكم من الشر

* و هذا أيضاً من توسعة الله على رسوله و رحمته به:-

أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب و أنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه و مع ذلك

فقد كان ﷺ يجتهد فى القسم بينهن فى كل شئ و يقول:- اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ) زوجاتك الموجودات

* هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ مُجَازَةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِضًا عَنْهُمْ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِمْ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ لِمَا خَيْرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ. فَلَمَّا اخْتَرَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللَّهَ قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بغيرهنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرَهُنَّ وَ لَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ إِلَّا الْإِمَاءَ وَ السَّرَارِيَ فَلَا حَجَرَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الْحَجَرَ فِي ذَلِكَ وَ نَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ أَبَاحَ لَهُ التَّزْوُجَ وَ لَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزْوُجَ لِتَكُونَ الْمِنَّةُ لِلرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِنَّ. * وَ قَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى الْآيَةِ:-

مِنْ بَعْدِ مَا ذَكَرْنَا لَكَ مِنْ صِفَةِ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَحَلَّلْنَا لَكَ مِنْ:- نِسَائِكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ بَنَاتِ الْعَمِّ وَالْعَمَّاتِ وَ الْخَالَ وَ الْخَالَاتِ وَ الْوَاهِبَةِ وَ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ فَلَا يَحِلُّ لَكَ. (وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) و لا تطلق بعضهن فتأخذ بدلها.

فحصل بهذا أمنهن من:-

1-الضرائر 2-و من الطلاق

لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا و الآخرة لا يكون بينه و بينهما فرقة.

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) حسن غيرهن فلا يحلن لك

(إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) السراى

فذلك جائز لك لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

مراقبًا للأمور و عالمًا بما إليه تؤول و قائمًا بتدبيرها على أكمل نظام و أحسن إحكام.

* البخارى 402 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَأَفَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ:-

فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَزَلْتُمْ: (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) [البقرة: 125]

وَ آيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَمَرْتُ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَ الْفَاجِرُ فَزَلْتُمْ آيَةُ

الْحِجَابِ وَ اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) فَزَلْتُمْ هَذِهِ الْآيَةُ "

* وَ كَانَ وَفْتُ نَزُولِهَا فِي صَبِيحَةِ عُرْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الَّتِي تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى تَزْوِيجَهَا بِنَفْسِهِ وَ كَانَ ذَلِكَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ

* البخارى 4791 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ

فَطَعِمُوا (أَكَلُوا) ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَ إِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ

مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةً نَفَرًا (هو هنا الفرد من الرجال ويقال لجماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة) فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ

ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَأَنْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ

فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ (حجبتني عن زوجاته ومنعني من الدخول عليهن) فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: 53]

○ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته فقال:-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ)

*حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ كَمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ حَتَّى غَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَ ذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: *البخارى 5232 عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-
إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»

(احذروا من الدخول على النساء غير المحارم ومنع الدخول يستلزم منع الخلوة من باب أولى)

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمَوَ؟

(أخبرني عن دخول الحمى على المرأة والمراد بالحمى أقارب الزوج من غير المحارم كالأخ والعم والخال وأبنائهم) قَالَ: «الْحَمَوُ الْمَوْتُ»

(لقاؤه الهلاك لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبية وأقرب إلى وقوع الجريمة لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أمكن)

*ثُمَّ اسْتَتَنَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ:- (إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ)

لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام.

*الصحيح المسند من أسباب النزول: البخارى 4794 - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:-

«أَوَّلَ مَا رَسُلُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَنَى بَزِينَبَ بِنْتَ جَحْشٍ فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْرًا وَ لَحْمًا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجْرِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بَنَائِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَ يُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَ يَدْعُو لَهُنَّ وَ يَدْعُونَ لَهُ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الْحَدِيثُ فَلَمَّا رَأَاهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نِسَاءَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعِينَ فَمَا أَدْرَى أَنَا أَخْبَرْتُهُ بِخُرُوجِهِمَا أَمْ أَخْبَرَ فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَ أَرَخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ وَ أَنْزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ»

*البخارى :- 6240 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ:

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ قَالَتْ: فَلَمْ يَفْعَلْ وَ كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ يَخْرُجْنَ لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ وَ كَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً فَرَأَاهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَ هُوَ فِي الْمَجْلِسِ فَقَالَ: عَرَفْتُكَ يَا سَوْدَةُ حَرَصًا عَلَى أَنْ يُنْزَلَ الْحِجَابُ قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ الْحِجَابِ

*الصغير للطبراني 227 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَيْسًا فِي قَعْبٍ

فَمَرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَدَعَاهُ فَأَكَلَ فَأَصَابَتْ أَصْبَعُهُ أَصْبَعِي فَقَالَ: «حَسَّ أَوْهٍ أَوْهٍ لَوْ أَطَاعَ فَيَكُنَّ مَا رَأَتْكَ عَيْنٌ»
فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ

طريق الجمع بين هذه الروايات:-

قال الحافظ في الفتح:- و طريق الجمع بينهما أن أسباب نزول الحجاب تعددت و كانت قصة زينب آخرها أخرجها للنص على قصتها في الآية أو المراد بآية الحجاب في بعضها قوله تعالى {يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ} الآية. ا. هـ.

وأقول في كون المراد بآية الحجاب قوله {يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَائِبِهِنَّ} نظر. إذ قد صرحت الروايات في شأن قصة زينب بنزول قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} الآية وفي شأن قول عمر 1 عند الطبري ج 12. ص 40 فأنزل الله آية الحجاب قال الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا} الآية فالقول بتعدد الأسباب أولى.

تنبيه مهم:

يفهم من هذا الحديث أن قول عمر: قد عرفناك يا سودة. قبل الحجاب وفي بعضها أنه بعد الحجاب فما الجمع قال الحافظ في الفتح ج 10 ص 150 قال الكرمانى:-

فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب وتقدم في الوضوء أنه كان قبل الحجاب فالجواب لعله وقع مرتين

قال الحافظ قلت: بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثانى والحاصل أن عمر رضي الله عنه وقع في قلبه نقرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوى حتى صرح بقوله له رضي الله عنه:- احجب نساءك.

وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب ثم قصد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ولو كن مستترات فبالغ في ذلك فمنع منه وأذن لهن في الخروج لحاجتهن دفعا للمشقة ورفعاً للحرَج.

(غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ) منتظرين و متأنين لا انتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه.

*أَيُّ: لَا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْإِسْتِوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ فَإِنَّ هَذَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَ يَذْمُهُ. وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْفِيلِ

و المعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:-

1-الإذن لكم بالدخول

2-و أن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة

و لهذا قال:- (وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا)

*مسلم (1429) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:- «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْوَلِيمَةِ (اسم لكل طعام يتخذ لجمع و قال ابن فارس ه ي طعام العرس وزاد الجوهرى شاهدا أولم ولو بشاة) فَلْيَأْتِهَا»

*البخارى:- 2568 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَ لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ (اليد من الحيوان) أَوْ كِرَاعٌ (ما استدق من ساق الحيوان) لَقَبِلْتُ»

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ) أكلتم (فَانْتَشَرُوا) فانصرفوا

(وَلَا مُسْتَعْسِبِينَ لِحَدِيثٍ) قبل الطعام و بعده كما وَقَعَ لِأَوَّلِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلَ بِهِمُ الْحَدِيثُ

و نَسُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ

ثم بين حكمة النهى و فائدته فقال: (إِنَّ ذَلِكَ) انتظاركم الزائد على الحاجة

(كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ) يتكلف منه و يشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته و اشتغاله فيه

(فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) أن يقول لكم: « اخرجوا » كما هو جارى العادة أن الناس

—و خصوصاً أهل الكرم منهم— يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم

(و) لكن (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ)

فالأمر الشرعى و لو كان يتوهم أن في تركه أدبا و حياء

فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعى و أن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شىء.

و الله تعالى لا يستحى أن يأمركم بما فيه الخير لكم و الرفق لرسوله كائنًا ما كان فهذا أدبهم فى الدخول في بيوته

و أما أدبهم معه في خطاب زوجاته فإنه:—

إما أن يحتاج إلى ذلك أو لا يحتاج إليه فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه و الأدب تركه

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا) إن احتج إليه كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها

(فَسَأَلُوهُنَّ) فإنهن يُسألن (مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) يكون بينكم و بينهن ستر يستر عن النظر لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال و كلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله

* وَ كَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ وَ لَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَ لَا يَسْأَلُهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

* ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: (ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)

من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء و للنساء في أمر الرجال فالرؤية سبب الفتنة لأنه أبعد عن الريبة

و كلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر [[[فإنه أسلم له و أظهر لقلبه]]]

فلهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيرًا من تفاصيلها أن جميع وسائل الشر و أسبابه و مقدماته ممنوعة و أنه مشروع البعد عنها بكل طريق. ثم قال كلمة جامعة و قاعدة عامة:—

(وَمَا كَانَ لَكُمْ) يا معشر المؤمنين أى: غير لائق و لا مستحسن منكم بل هو أقبح شىء

(أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به

(وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا)

هذا من جملة ما يؤذيه:—

1— فإنه ﷺ له مقام التعظيم و الرفعة و الإكرام و تزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام.

2— و أيضا فإنهن زوجاته فى الدنيا و الآخرة و الزوجية باقية بعد موته فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته.

(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

و قد امثلت هذه الأمة هذا الأمر و اجتنبت ما نهى الله عنه منه و لله الحمد و الشكر.

* وَ لِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ تَوَفَّى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزْوِيجُهَا مِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ **53**

ثم قال تعالى: (إِنْ تَبَدُّوا) ظهوره (شَيْئًا) على ألسنتكم -أيها الناس- مما يؤذى رسول الله مما نهاكم الله عنه

(أَوْ تُخَفُّوهُ) في قلوبكم و ضمائرهم و تَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ

(فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ

{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غَافِرٍ: 19] **54**

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيْ ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ
وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهََ إِنَّ اللَّهََ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ اللَّهََ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهََ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَّيْنٌ لِّمَنْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾
سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب و كان اللفظ عامًا لكل أحد احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم و أنه (لَا جُنَاحَ) اثم (عَلَيْهِنَّ) فى عدم الاحتجاب عنهم.

*ابْنُ جَرِيرٍ: عَنِ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: (فِيْ ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ) قُلْتُ: مَا شَأْنُ الْعَمِّ وَالْخَالَ لَمْ يُذْكَرَا؟ قَالَا هُمَا يَنْعَتَانِيهَا لِأَبْنَائِهِمَا. وَ كَرِهَا أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عِنْدَ خَالِهَا وَ عَمَّهَا (وَلَا نِسَائِهِنَّ) اللاتي من جنسهن فى الدين فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار و يحتمل أن المراد جنس النساء فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة.

(وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) ما دام العبد فى ملكها جميعه.
*أَرْقَاءَهُنَّ مِنَ الذُّكُورِ وَ الْإِنَاثِ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيْهُ عَلَيْهِ وَ إِيْرَادُ الْحَدِيثِ فِيهِ
*داود 4106 - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بَعْدَ كَانَ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا قَالَ:-
وَ عَلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثَوْبٌ إِذَا قَنَعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا
وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ:-
إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ إِمَّا هُوَ أَبُوكَ وَ غُلَامُكَ»

* و لما رفع الجناح عن هؤلاء شرط فيه و فى غيره لزوم تقوى الله و أن لا يكون فى محذور شرعي

فقال: (وَأَتَقِينَ اللَّهََ) استعملن تقواه فى جميع الأحوال

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

يشهد أعمال العباد ظاهرها و باطنها و يسمع أقوالهم و يرى حركاتهم ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء و أوفاه.
و هذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ و رفعة درجته و علو منزلته عند الله و عند خلقه و رفع ذكره **55**

حرمة إيذاء الرسول للمؤمنين 56-58

و (إِنَّ اللَّهَ) تعالى (وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) عليه

أى: يشي الله عليه بين الملائكة:- و فى الملائكة الأعلى لمحبتة تعالى له

و تشي عليه الملائكة المقربون:- و يدعون له و يتضرعون.

صَلَاةُ اللَّهِ:- ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ

و صَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ. وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُصَلُّونَ: يَبْرِكُونَ.

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَ التَّسْلِيمِ عَلَيْهِ لِيَجْتَمَعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ الْعُلَوِيِّ

وَ السُّفْلِيِّ جَمِيعًا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

1- اقتداء بالله و ملائكته

2- و جزاء له على بعض حقوقه عليكم

3- و تكميلاً لإيمانكم

4- و تعظيماً له ﷺ

5- و محبة و إكراماً

6- و زيادة فى حسناتكم

7- و تكفيراً من سيئاتكم

و هذا الأمر بالصلاة و السلام عليه مشروع فى جميع الأوقات و أوجه كثير من العلماء فى الصلاة

* وَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى يُصَلِّي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب: 41-43]

وَ قَالَ تَعَالَى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وَلِيَكَّ عَلَيْنَهُمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 155-157]

* داود 676- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَّامِنِ الصُّوفِ

* البخارى 1497- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ

قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فَلَانٍ» فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»

* البخارى 3370 - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقِيتُ كَعْبُ بْنَ عَجْرَةَ

فَقَالَ: أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقُلْتُ: بَلَى فَأَهْدَهَا لِي فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟

قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ *مسلم (408) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»

*الترمذي: 3546- عَنْ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ

*الترمذي 3545 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ

وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ

وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ»

*قَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ فَمِنْهَا وَاجِبٌ وَمِنْهَا مُسْتَحَبٌّ عَلَى مَا نُبَيِّنُهُ.

فَمِنْهُ: بَعْدَ النَّدَاءِ لِلصَّلَاةِ

*أحمد 6568 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه يَقُولُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذَّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا

ثُمَّ سَلُّوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ

وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ **56**

*لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ و الصلاة و السلام عليه:- نهى عن أذيته و توعده عليها فقال:-

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

و هذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية **مــــن**:- **سب** و **شتم** أو **تنقص** له أو **لدينه** أو **ما يعود إليه بالأذى**.

*البخارى 4826 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

يُؤْذِرِي (ينسب إلى ما من شأنه أن يؤذى ويسىء) ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ

(بسبب ما يصيبه فيه من أمور وأنا المدبر لكل ما يحصل لكم وتنسونه إلى الدهر فإذا سببتم الدهر لما يجري فيه كان السب في الحقيقة لي لأني أنا المدبر المتصرف والأمر كله بيدي أي بإرادتي و قدرتي)

وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ

*مَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: يَا حَبِيبَةَ الدَّهْرِ فَعَلَ بِنَا كَذَا وَ كَذَا.

فَيُسْنَدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ وَ يَسْبُونَهُ وَ إِنَّمَا الْفَاعِلُ لَذَلِكَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَتَنَهَى عَنْ ذَلِكَ.

*وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ وَ مَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهُ وَ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

(لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا) أبعدهم و طردهم- و من لعنهم ففى الدنيا أنه يُحْتَمَّ قتل من شتم الرسول و آذاه.

(وَالْآخِرَةُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) جزاء له على آذاه أن يؤذى بالعذاب الأليم

فأذية الرسول ليست كأذية غيره لأنه- ﷺ- لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله ﷺ.

و له من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره **57**

و إن كانت أذية المؤمنين عظيمة و إثمها عظيمًا و لهذا قال فيها:-

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) بغير جناية منهم موجبة للأذى

(فَقَدْ أَحْتَمَلُوا) علیٰ ظهورهم

(بِهَتَنَا) حيث آذوهم بغير سبب- فقد ارتكبوا أفحش الكذب و الزور

(وَإِنَّمَا تُمِينًا) ذنبًا ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة.

حيث تعدوا عليهم و انتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

* و لهذا كان سب آحاد المؤمنين موجبا للتعزير بحسب حالته و علو مرتبته فتعزير من سب الصحابة أبلغ و تعزير من سب العلماء و أهل الدين أعظم من غيرهم.

* وَ هَذَا هُوَ الْبُهْتُ الْبَيِّنُ أَنْ يُحَكَّى أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَ التَّنْقِصِ لَهُمْ

*الحاكم 2259 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:-

الرَّبَّا ثَلَاثَةٌ وَ سَبْعُونَ أَبَا أَيْسَرَهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ وَ إِنَّ أَرْبَى الرِّبَا عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ»

* داود 4876 - عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الْإِسْطِطَالَةَ فِي عَرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ

*شعب الإيمان 6285 - عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَخْبِرُونِي مَا أَرْبَى الرِّبَا؟ "

قَالُوا: اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " فَإِنَّ أَرْبَى الرَّبَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اسْتِحْلَالُ عَرَضِ الْمُسْلِمِ

ثُمَّ قَرَأَ: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرَ مَا كَتَبْنَا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينٌ} [الأحزاب: 58]

فرض الحجاب 59

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية التي تسمى آية الحجاب فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً و يبدأ بزوجاته و بناته

لأنهن أكد من غيرهن و لأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم كما قال تعالى:-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا

أَنْ (يُذْنِبَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ)

و هن اللاتى يكن فوق الشياى من ملحفة و خمار و رداء و نحوه أى: يغطين بها وجوههن و صدورهن.

*وَالْجَلْبَابُ هُوَ: الرِّدَاءُ فَوْقَ الْخِمَارِ

وَقَالَ عِكرْمَةُ: تُغْطِي ثَغْرَةَ نَحْرِهَا بِجَلْبَابِهَا تُدْنِيهِ عَلَيْهَا.

* وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {يُذِنَنَّ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ}

خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغُرَبَانُ مِنَ السَّكِينَةِ وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَّةٌ سُودٌ يَلْبَسْنَهَا .

*البخارى 4759 - عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ} [النور: 31] أَخَذَنَ أَزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»

*ثم ذكر حكمة ذلك فقال: (ذَلِكَ أدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ ۖ فَلَا يُؤْذِنُ) دل على وجود أذية إن لم يحتجب

و ذلك لأنهن إذا لم يحتجبن:-

1-ربما ظن أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن

2-و ربما استهين بهن و ظن أنهن إماء فتهاون بهن من يريد الشر. فلاحتراب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.
قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ:-

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ }
قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنْ فُسَّاقِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَخْرُجُونَ بِاللَّيْلِ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ إِلَى طُرُقِ الْمَدِينَةِ يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ وَ كَانَتْ مَسَاكِنُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ضَيِّقَةً فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ خَرَجَ النِّسَاءُ إِلَى الطُّرُقِ يَقْضِينَ حَاجَتَهُنَّ فَكَانَ أَوْلَئِكَ الْفُسَّاقُ يَبْتَغُونَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ فَإِذَا رَأَوْا امْرَأَةً عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا: هَذِهِ حُرَّةٌ كَفُّوا عَنْهَا. وَإِذَا رَأَوْا الْمَرْأَةَ لَيْسَ عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا: هَذِهِ أَمَةٌ. فَوَثَبُوا إِلَيْهَا .

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ عِلْمٌ بِذَلِكَ.

(رَجِيمًا) (رحمكم بأن بين لكم الأحكام و أوضح الحلال و الحرام فهذا سد للباب من جهتهن 59

تهديد المنافقين و توعدهم بقوله:

تهديد المنافقين و توعدهم بقوله: 68-60

(لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) شك أو شهوة

(وَالْمُرْجُفُونَ) (المخوفون المرهبون الأعداء المحدثون بكثرتهم و قوتهم و ضعف المسلمين (فِي الْمَدِينَةِ)
و لم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم و توسوس به و تدعو إليه من الشر _____ن:-

1-التعريض بسبب الإسلام و أهله 2-و الإرجاف بالمسلمين و توهين قواهم

3-و التعرض للمؤمنات بالسوء و الفاحشة 4-و غير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

(لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ)

نأمرك بعقوبتهم و قتالهم و نسلطك عليهم ثم إذا فعلنا ذلك لا طاقة لهم بك و ليس لهم قوة و لا امتناع

(ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا) في المدينة

(إِلَّا قَلِيلًا) بأن تقتلهم أو تنفيهم.

و هذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين فإن ذلك أحسم للشر و أبعد منه 60

و يكونون (مَلْعُونِينَ) مبعدين

(أَيْنَمَا نَفْعُوا) وجدوا لا يحصل لهم أمن و لا يقر لهم قرار يخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا.

(أَخِذُوا وَقَتْلُوا نَفْسِيًّا) لذلتهم و قتلهم 61

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ)

أن من تمادى فى العصيان و تجراً على الأذى و لم ينته منه فإنه يعاقب عقوبة بليغة.

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) تغييراً بل سنته تعالى و عاداته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها **52**

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

هو طفل ككل الأطفال، عمره ست سنوات في الصف الأول الابتدائي، قامت أمه الصالحة بتربيته على كتاب الله عز وجل منذ نعومة أظفاره، فأحب كتاب الله وبدأ في حفظه، وفي يوم ذهبت أمه إلى المدرسة لأخذه، فوجدته منشغلاً يكتب في ورقة معه، فنادثته فأقبل إليها ومعه الورقة، وظنت الأم أنه كان يرسم في تلك الورقة، فأخذت الورقة منه على عجل، وقامت بطيها، فخاف ابنها أن ترميها، فقال لها: أمي؛ أمي! لا ترمي هذه الورقة.

- قالت له: لم؟

- قال لأن بها قرآنًا.

- فأخذت الأم تقرأ الورقة! ثم قالت: أنت كتبت هذه؟

- قال لها: نعم.

- قالت له في اندهاش: ولم كتبتها؟

- قال لها: يا أمي؛ إن صديقي الذي يجلس أمامي في الفصل ظلم صديقي الآخر ظلمًا كبيرًا، وقام بأذيته دون أدنى ذنب منه، فقمت بكتابة هذه الآية لصديقي الظالم لأذكره بالله وأخوفه منه.

كانت الآية هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغَيِّرُ

مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَسَبُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(١). الأحزاب: ٥٨.

.....

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
 يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا
 سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ أَذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
 وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
 فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾
 لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

* يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ: أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ. وَ أَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ لَهُ فِي سُورَةِ "الْأَعْرَافِ" وَ هِيَ مَكِّيَّةٌ وَ هَذِهِ مَدَنِيَّةٌ فَاسْتَمَرَ الْحَالُ فِي رَدِّ عِلْمِهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} كَمَا قَالَ: {اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القَمَر: 1] وَ قَالَ {اقتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: 1] وَ قَالَ {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: 1]

أى: (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ)

يستخبرك الناس عن الساعة:-

1- استعجالا لها

2- وبعضهم تكذيباً لوقوعها

3- وتعجيزاً للذي أخبر بها.

(قُلْ) لهم: (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) لا يعلمها إلا الله فليس لى و لا لغيري بها علم و مع هذا فلا تستبطؤوها.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

و مجرد مجيء الساعة قرباً و بعداً ليس تحته نتيجة و لا فائدة و إنما النتيجة و الخسار و الربح و الشقا و السعادة

هل يستحق العبد العذاب أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها و أصف لكم مستحقها **63**
فوصف مستحق العذاب و وصف العذاب لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة فقال:-

(**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ**)

الذين صار الكفر دأبهم و طريقتهم الكفر بالله و برسله و بما جاءوا به من عند الله فأبعدهم في الدنيا و الآخرة من رحمته و كفى بذلك عقاباً

(**وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا**) نارا موقدة تسعر في أجسامهم و يبلغ العذاب إلى أفئدتهم **64**

(**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**) يخلدون في ذلك العذاب الشديد فلا يخرجون منه و لا يُقْتَر عنهم ساعة.

و (**لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا**) فيعطيهما ما طلبوه

(**وَلَا نَصِيرًا**)

يدفع عنهم العذاب بل قد تخلى عنهم الولي النصير و أحاط بهم عذاب السعير و بلغ منهم مبلغاً عظيماً **65**

و لهذا قال: (**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**)

فيذوقون حرها و يشتد عليهم أمرها و يتحسرون على ما أسلفوا-

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَ تَلَوَى وُجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ يَقُولُونَ وَ هُمْ كَذَلِكَ

(**يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ**)

فسلمنا من هذا العذاب و استحققنا كالمطيعين جزيل الثواب

و لكن أمنية فات وقتها فلم تفدهم إلا حسرة و ندماً و همماً و غمّاً و ألماً.

*يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ أَطَاعَ الرَّسُولَ

كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَصَاتِ بِقَوْلِهِ: (**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا**) وَيَلْتَنِي

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27-29]

وَ قَالَ تَعَالَى: { **رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** } [الحجر: 2]

وَ هَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللَّهَ وَ أَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا **66**

(**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا**)-الاشراف-الأمرأء

(**وَكُفَرَاءَنَا**)-العلماء-الجهراء **مِنَ الْمَشِيخَةِ**

وَ خَالَفْنَا الرُّسُلَ وَ اعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا وَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَ قلدنا غير الرسل

(**فَاضْلَلْنَا السَّبِيلَ**)

كقوله (وَيَوْمَ يَعِظُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي) 67

و لما علموا أنهم هم و كبراءهم مستحقون للعقاب أرادوا أن يشتموا ممن أضلوهم فقالوا:—

(رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِزَعْفَرِينَ مِنَ الْعَذَابِ) بِكُفْرِهِمْ وَ إِغْوَائِهِمْ إِيَّانَا

فيقول الله لكل ضعف فكلكم اشركتم في الكفر و المعاصي فتشركون في العقاب و إن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

توجيهات و عظات للمسلمين 69-71

(وَالْعَنَمُ) اطردهم من رحمتك (لَعَنَّا كَبِيرًا) طردًا شديدًا

*في هذا دليل على :-

1- أن طاعة غير الله في مخالفة أمره و أمر رسوله موجبة لسخط الله و عقابه

2- و أن التابع و المتبوع في العذاب مشتركون فليحذر المسلم ذلك 68

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى)

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرؤوف الرحيم فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام و الاحترام و أن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن

(فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) من الأذية أى: أظهر الله لهم براءته و الحال أنه ﷺ ليس محل التهمة و الأذية

(وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) عظيم القدر و الجاه مقربًا لديه من خواص المرسلين و من عباده المخلصين

*قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: -كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ. وَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: -لَمْ يَسْأَلِ اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ وَ لَكِنْ مُنِعَ الرُّؤْيَى لِمَا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: -مِنْ وَجَاهَتِهِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ اللَّهِ: أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ هَارُونَ أَنْ يُرْسِلَهُ اللَّهُ مَعَهُ فَأَجَابَ اللَّهُ سُؤَالَهِ وَ قَالَ: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} [مَزِيم: 53]

فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته و التعرض له بما يكره فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك

*البخارى 3404 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -

إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سَتِيرًا (من شأنه و دأبه حب السر و صون نفسه عن رؤية أحد لعورته) لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنْهُ فَأَذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: -

إِمَّا بَرَصٌ (بقع بياض تكون على الجلد) وَ إِمَّا أَدْرَةٌ (انتفاخ في الخصى) وَ إِمَّا آفَةٌ (عيب)

وَ إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّتَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَخَذَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَ إِنَّ الْحَجَرَ عَدَا (مشى مسرعاً) بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَ طَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَ أَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَ قَامَ الْحَجَرُ (وقف عن السير) فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ

وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)* وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: {-فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}

قَالَ: صَعِدَ مُوسَى وَ هَارُونَ الْجَبَلَ فَمَاتَ هَارُونَ عليه السلام فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عليه السلام:- أَنْتَ قَتَلْتَهُ كَانَ أَلَيْنَ لَنَا مِنْكَ وَ أَشَدَّ حَيَاءً. فَأَذَوْهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ فَحَمَلَتْهُ فَمَرُّوا بِهِ عَلَى مَجَالِسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَكَلَّمَتْ بِمَوْتِهِ فَمَا عَرَفَ مَوْضِعَ قَبْرِهِ إِلَّا الرَّخَمَ وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ أَصَمَّ أَبْكُمْ 69

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر و العلانية (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) و يخص منها و يندب للقول السديد

و هو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين مــــن:-

- 1- قــــراءة و ذكــــر
- 2- و أــــمر بمعروف
- 3- و نهــــي عن منكر
- 4- و تعــــلم علم و تعليمه
- 5- و الحرص على إصــــابة الصواب في المسائل العلمية
- 6- و سلوك كل طريق يوصل لذلك و كل وسيلة تعين عليه.
- * و من القول السديد:-
- 7- لين الكلام و لطفه في مخاطبة الأنام
- 8- و القول المتضمن للنصح و الإشارة بما هو الأصلح 70
- * ثم ذكر ما يترتب على تقواه و قول القول السديد فقال:-

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

يكون ذلك سبباً لصلاحها و طريقاً لقبولها لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال كما قال تعالى:- (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

- 1- و يوفق فيه الإنسان للعمل الصالح
 - 2- و يصلح الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها
 - 3- و حفظ ثوابها و مضاعفته
- كما أن الإخلال بالتقوى و القول السديد سبب لفساد الأعمال و عدم قبولها و عدم تَرْتُّبِ آثارها عليها.
- (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) أيضاً

(ذُنُوبَكُمْ) التي هي السبب في هلاككم فالتقوى تستقيم بها الأمور و يندفع بها كل محذور

و لهذا قال: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فيما أمر و نهى

الامانة 72-73

(فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) بالكرامة العظمى في الدنيا و الآخرة 71

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى شَأْنِ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَمْنَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَكَلِّفِينَ الَّتِي هِيَ: -

1- امتثال الأوامر

2- واجتناب المحارم في حال السر و الخفية كحال العلانية

* و أنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة: - (عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) عرض تخيير لا تحميم

* و أنك إن قمت بها و أدبيتها على وجهها: - فلك الثواب

* و إن لم تقومى بها و لم تؤديها: - فعليك العقاب.

(فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا) خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ لا عصياناً لربهن و لا زهداً في ثوابه

و عرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور فقبلها

(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) مع ظلمه و جهله و ضعفه

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) شديد الظلم (جَهُولًا) شديد الجهل لنفسه

* فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها و عدمه - إلى ثلاثة أقسام: -

1- من افقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً

2- و مشركون تركوها ظاهراً و باطناً

3- و مؤمنون قائمون بها ظاهراً و باطناً.

* وَ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: - الْأَمَانَةُ ثَلَاثَةٌ: الصَّلَاةُ وَ الصَّوْمُ وَ الْإِغْتِسَالُ مِنَ الْجَنَابَةِ. وَ كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا تَنَافِي بَيْنَهَا بَلْ هِيَ مُتَّفِقَةٌ وَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَنَّهَا التَّكْلِيفُ وَ قَبُولُ الْأَمْرِ وَ النَّوَاهِي بِشَرْطِهَا وَ هُوَ أَنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ أَثِيبَ وَ إِنْ تَرَكَهَا عُوِقِبَ فَقَبِلَهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ضَعْفِهِ وَ جَهْلِهِ وَ ظُلْمِهِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَ اللَّهُ وَ بِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

* البخارى 6497 - عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَ أَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا:

«أَنَّ الْأَمَانَةَ (الطاعة و التزام الأمر والنهي) نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»

وَ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ

فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ (أثر النار و نحوها) ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ

(التنقط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه أو من مس النار وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم)

كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِهَاً (مرتفعاً) وَ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ

فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا

وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلُهُ وَ مَا أَظْرَفُهُ (ما أحسنه) وَ مَا أَجْلَدُهُ (ما أقواه وما أصبره) وَ مَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ (وزن) حَبَّةٍ خَرْدَلٍ

(نبت صغير الحب يضرب به المثل في الصغر) مِنْ إِيْمَانٍ

وَ لَقَدْ آتَى عَلِيٌّ زَمَانٌ (مر على من قبل) وَ مَا أَبَالِي (لا أبحث عن حال من أبيع لثقتي بأمانته) أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لئن كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ
الإِسْلَامُ وَ إِن كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ (الوالي عليه يقوم بالأمانة في ولايته فينصفني ويستخرج حقي منه)

فَأَمَّا الْيَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَ فُلَانًا (يعني أفرادا من الناس قلائل أعرفهم و أثق بأمانتهم) **72**

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة و ما لهم من الثواب و العقاب فقال:-

إِنَّمَا حَمَلَ ابْنُ آدَمَ الْأَمَانَةَ وَ هِيَ التَّكَالِيفُ (لَيُعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ) مِنْهُمْ

(وَالْمُنْفِقَتِ) هُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيْمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ مُتَابِعَةً لِأَهْلِهِ

{وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ} هُمُ الَّذِينَ ظَاهَرُهُمْ وَ بَاطِنُهُمْ عَلَى الشُّرْكِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ مُخَالَفَةِ رُسُلِهِ

(وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) بستر ذنوبهم وترك عقابهم

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) للتائبين من عباده

(رَحِيمًا) بهم.

فله الحمد تعالى حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالين على تمام مغفرة الله و سعة رحمته

و عموم جوده مع أن المحكوم عليهم كثير منهم لم يستحق المغفرة و الرحمة لنفاقه و شركه **73**

.....

34-سورة سبأ-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ^٤ وَالْحِكْمُ الْخَيْرُ^١
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهِ^٤ وَالرَّحِيمُ الْغَفُورُ^٢
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ^٥ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَ^٥كُمْ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^٣
لِيَجْزِيَ^٦ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ^٤ وَلِتُكَفِّرَ^٤ عَنْهُمْ مَغْفِرَةً^٤ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^٤
وَالَّذِينَ سَعَوْا^٧ فِي ءَايَاتِنَا^٧ مُعْجِزِينَ^٧ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ^٥ وَيَرَى^٨ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ^٩ مِنْ رَبِّكَ^٩ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي^٩ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ^٦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ نُنْذِرُكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْتَبِئُكُمْ^{١٠} إِذَا مَرَقْتُمْ^{١٠} كُلَّ مُمْرَقٍ^{١٠} إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ^٧

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي) الحمْد :- الشاء بالصفات الحميدة و الأفعال الحسنه

اثبات البعث و الرد على منكريه 9-1

فلله تعالى الحمْد لأن :-

1- جميع صفاته يُحمد عليها لكونها صفات كمال 2- و أفعاله يحمد عليها

لأنها دائرة بين الفضل :- الذي يحمد عليه و يشكر

و العدل :- الذي يُحمد عليه و يُعترف بحكمته فيه.

* و حمد نفسه هنا على أن (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ملكا و عبدا يتصرف فيهم بحمده.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ)

لأن في الآخرة يظهر من حمده و الشاء عليه ما لا يكون في الدنيا فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم و رأى الناس و الخلق كلهم ما حكم به و كمال عدله و قسطه و حكمته فيه حمدوه كلهم على ذلك حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا و قلوبهم ممتلئة من حمده و أن هذا من جراء أعمالهم و أنه عادل في حكمه بعقابهم.

○ و أما ظهور حمده في دار النعيم و الثواب فذلك شيء قد تواردت به الأخبار و توافق عليه الدليل السمعي و العقلي فإنهم في الجنة يرون من توالي نعم الله و إدراج خيره و كثرة بركاته و سعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية و لا إرادة إلا و قد أعطي فوق ما تمنى و أراد

بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم و لم يخطر بقلوبهم.

*فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال مع أن في الجنة تضحل العوارض و القواطع التي تقطع عن معرفة الله و محبته و الثناء عليه و يكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم و ألد عليهم من كل لذة و لهذا إذا رأوا الله تعالى و سمعوا كلامه عند خطابه لهم أذهلهم ذلك عن كل نعيم و يكون الذكر لهم في الجنة كالنفس متواصلا في جميع الأوقات هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت من عظمة ربهم و جلاله و جماله و سعة كماله ما يوجب لهم كمال الحمد و الثناء عليه.

(وَهُوَ الْحَكِيمُ) في ملكه و تدبيره الحكيم في أمره و نهيهِ.

(الْخَيْرُ) المطلع على سرائر الأمور و خفاياها 1

و لهذا فصل علمه بقوله: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ) من مطر و بذر و حيوان

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) من أنواع النباتات و أصناف الحيوانات

(وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ) من الأملاك و الأرزاق و الأقدار

(وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا) من الملائكة و الأرواح و غير ذلك.

و لما ذكر مخلوقاته و حكمته فيها و علمه بأحوالها ذكر مغفرته و رحمته لها

فقال: (وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ) الذي الرحمة و المغفرة وصفه

و لم تنزل آثارهما تنزل على عباده كل وقت بحسب :- ما قاموا به من مقتضياتهما 2

*بين تعالى عظمتة بما وصف به نفسه و كان هذا موجبا لتعظيمه و تقديسه و الإيمان به ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره و لم تعظمه حق عظمتة بل كفروا به و أنكروا قدرته على إعادة الأموات

و قيام الساعة و عارضوا بذلك رسله فقال:- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله و برسله و بما جاءوا به

فقالوا بسبب كفرهم: (لَا نَأْتِيَنَّ السَّاعَةَ) ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت و نحيا.

فأمر الله رسوله أن يرد قولهم و يبطله و يقسم على البعث و أنه سيأتيهم

و استدل على ذلك بدليل من أقر به لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة و هو علمه تعالى الواسع العام

فقال: (عَلِيمِ الْغَيْبِ) الأمور الغائبة عن أبصارنا و عن علمنا فكيف بالشهادة؟

ثم أكد علمه فقال: (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ) لا يغيب عن علمه

(مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) وزن فملة صغيرة

(فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

جميع الأشياء بذواتها و أجزائها حتى أصغر ما يكون من الأجزاء و هو المثناقيل منها.

(وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

قد أحاط به علمه و جرى به قلمه و تضمنه الكتاب المبين الذى هو اللوح المحفوظ فالذى لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات و يعلم ما تنقص الأرض من الأموات و ما يبقى من أجسادهم قادر على بعثهم من باب أولى و ليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

* هَذِهِ إِحْدَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا رَابِعَ لَهَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ لَمَّا أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ

1- فِي سُورَةِ يُونُسَ: {وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يُونُسَ: 53]

2- هَذِهِ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ

3- فِي التَّغَابُنِ: {رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التَّغَابُنِ: 7]

* الحكمة الأولى من إعادة الابدان و قيام الساعة:-

ثم ذكر المقصود من البعث فقال: (لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) بقلوبهم صدقوا الله و صدقوا رسله تصديقا جازما (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) تصديقا لإيمانهم.

(أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) لذنوبهم بسبب إيمانهم و عملهم يندفع بها كل شر و عقاب.

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) بإحسانهم يحصل لهم به كل مطلوب و مرغوب و أمنية 4

(وَالَّذِينَ سَعَوْا) يشبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ

1- كفرا بها

2- و تعجيزا لمن جاء بهـا

3- و تعجيزا لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت.

(فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ) مشاقين مغالين

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ) مؤلم لأبدانهم و قلوبهم.

* كَمَا قَالَ: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحَشَر: 20]

و قَالَ تَعَالَى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 28]

* الحكمة الثانية من إعادة الابدان و قيام الساعة:-

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)

* هَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا وَ هِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الرَّسْلِ إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَ مُجَازَاةَ الْأَبْرَارِ وَ الْفَجَارِ بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عُلِّمُوهُ مِّنْ كُتُبِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا رَأَوْهُ حِينَئِذٍ عَيْنَ الْيَقِينِ

وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ أَيُّضًا: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِإِلْحَاقٍ} [الأعراف: 43]

وَيُقَالُ أَيُّضًا: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: 52] {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} [الرُّوم: 56]

*لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث و أنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق ذكر حالة الموفقين من العباد و هم أهل العلم و أنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب و ما اشتمل عليه من الأخبار

(هُوَ الْحَقُّ) الحق منحصر فيه و ما خالفه و ناقضه فإنه باطل لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

و يرون أيضا أنه في أوامره و نواهيه

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ) و هو الإسلام.

(الْعَزِيزُ) هُوَ: الْمَنِيْعُ الْجَنَابِ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَ لَا يُمَانَعُ بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ

(الْحَمِيدُ) فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَ أَفْعَالِهِ وَ شَرْعِهِ وَ قَدَرِهِ وَ هُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ.

*و ذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة:-

1- من جهة علمهم بصدق ما أخبر به

2- و من جهة موافقته للأمور الواقعة و الكتب السابقة

3- و من جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عيانا

4- و من جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق و في أنفسهم

5- و من جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى و أوصافه.

و يــــرون في الأوامر و النواهي أنهــــا :-

1- تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمر بكل صفة تزكى النفس و تنمى الأجر و تفيد العامل و غيره

كالصدق و الإخلاص و بر الوالدين و صلة الأرحام و الإحسان إلى عموم الخلق و نحو ذلك.

2- و تنهى عن كل صفة قبيحة:- نفس النفس و تحبط الأجر و توجب الإثم و الوزر مــــن:-

الشــــرك و الزنــــا و الربــــا و الظلم في الدماء و الأمــــوال و الأعــــراض.

* و هذه منقبة لأهل العلم و فضيلة و علامة لهم

*و أنه كلما كان العبد أعظم علما و تصديقا بأخبار ما جاء به الرسول و أعظم معرفة بحكم أوامره و نواهيه:-

كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول احتج الله بهم على المكذبين المعاندين

كما في هذه الآية و غيرها 6

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) على وجه التكذيب و الاستهزاء و الاستبعاد و ذكر وجه الاستبعاد .. قال بعضهم لبعض:-

(هَلْ نَدْكُم عَلَى رَجُلٍ) يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ

(يُنَبِّئُكُمْ) و أنه رجل أتى بما يستغرب منه حتى صار -بزعمهم- فرجة يتفرجون عليه و أعجوبة يسخرون منه

(إِذَا مَزَقَّتْ كُلُّ مُمَزَّقٍ) و أنه كيف يقول (إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ)

بعدما مزقكم البلى و تفرقت أوصالكم و اضمحلت أعضاؤكم؟!.

(يخبركم ماذا يكون مصيركم اذا تمزقت أعضاؤكم و تحللت أجسادكم و تفرقت في الارض بعد الموت و صرتم ترابا فان محمد ﷺ يخبركم أنكم ستعودون احياء ترزقون (ليس معناها أنه ينبئكم اذا تفرقتم و تشتتم أو حال تمزقكم)

(إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) إنكم ستُحيون و تُبعثون من قبوركم؟ -قالوا ذلك من فرط إنكارهم.

وَهُوَ فِي هَذَا الْإِخْبَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ قِسْمَيْنِ:-

1- إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الْإِفْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ

2- أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ لَكِنْ لُبَسَ عَلَيْهِ كَمَا يُلَبَسُ عَلَى الْمَعْتُوهِ وَ الْمَجْنُونِ 7

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾
 أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْ نُخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ
 أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ * وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ
 مِنَّا فَضْلًا لِيَجَالِ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ
 وَأَعْمَلُوا صَدِيقًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسَلِيمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ
 وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا
 نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْشِيلٍ وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ
 أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ
 إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ
 مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

فهذا الرجل الذى يأتى بذلك هل (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟) فتجراً عليه و قال ما قال

(أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟) فلا يستغرب منه فإن الجنون فنون و كل هذا منهم على وجه العناد و الظلم

و لقد علموا أنه أصدق خلق الله و أعقلهم و من علمهم أنهم أبدوا و أعادوا فى معاداتهم و بذلوا أنفسهم
 و أموالهم في صد الناس عنه

فلو كان كاذبا مجنوناً لم ينبغ لكم - يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال و لا أن تحتفلوا بدعوته
 فإن المجنون لا ينبغى للعاقل أن يلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

و لولا عنادكم و ظلمكم لبادرتم لإجابته و لبيتم دعوته و لكن مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالتَّذْذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

و لهذا قال تعالى ردا عليهم:- (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) و منهم الذين قالوا تلك المقالة

(فِي الْعَذَابِ) فِي الْكُفْرِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ

(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا - فى الشقاء العظيم

* و أي شقاء و ضلال أبلغ ——— :-

1- إنكارهم لقدرة الله على البعث و تكذيبهم لرسوله الذي جاء به و استهزأهم به

2-و جزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق فرأوا الحق باطلا و الباطل و الضلال حقا و هدى 8

*ثم نبههم على الدليل العقلي الدال على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه:-

(أَفَلَمْ يَرَوْا) أنهم لو نظروا

(إِنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

فأروا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول و من عظمته ما يذهل العلماء الفحول

و أن خلقهما و عظمتها و ما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم

فما الحامل لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟

نعم ذاك خبر غيبي إلى الآن ما شاهدوه فلذلك كذبوا به.

قال الله: (إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ) كما فعلنا بقارون

(أَوْ نُسْقِطَ) ننزل (عَلَيْهِمْ كِسْفًا) قطعًا

(مِنْ السَّمَاءِ) بللعذاب كما فعلنا بقوم شعيب فقد أمطرت السماء عليهم نارًا فأحرقتهم

فلأرض و السماء تحت تدبيرنا فإن أمرناهما لم يستعصيا فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعاقبكم أشد العقوبة

(إِنَّ فِي ذَلِكَ) خلق السماوات و الأرض و ما فيهما من المخلوقات

(لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم 9

لأن المنيب:-

1-مقبل إلى ربه قد توجهت إراداته و هماته لربه

2-و رجع إليه في كل أمر من أموره فصار قريبا من ربه ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته

3-فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة و عبرة لا نظر غفلة غير نافعة.

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا) مننا (دَاوُدَ) على عبدنا و رسولنا داود ^{عليه السلام} وآتيناه (مِنَّا)

(فَضْلًا) من العلم النافع و العمل الصالح و النعم الدينية و الدنيوية

(يَجِبَالُ أَوِيٍّ) تُرَجَّع التسييح بحمد ربها مجاوبة (مَعَهُ وَالطَّيْرُ) ^ط

و في هذا من النعمة عليه:-

1-أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله و لا بعده

2-و أن ذلك يكون منهضا له و لغيره على التسييح إذا رأوا هذه الجمادات و الحيوانات تتجاوب بتسييح ربها

و تمجيده و تكبيره و تحميده كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

نعم الله على داود و سليمان 10-24

- 3- أن ذلك - كما قال كثير من العلماء أنه طرب لصوت داود عليه السلام فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره و كان إذا رجّع التسبيح و التهليل و التحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب طرب كل من سمعه من الإنس و الجن حتى الطيور و الجبال و سبحت بحمد ربها.
- 4- أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها لأنه سبب ذلك و تسبح تبعاً له.

*البخارى 5048 - عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ:

يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا (صوتا حسنا يشبه ما أعطيه داود عليه السلام من حسن الصوت) مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ

و من فضله عليه (وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) أن ألان له الحديد- فكان كالعجين يتصرف فيه كيف يشاء.

*كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَدْخُلَهُ نَارًا وَلَا يَضْرِبُهُ مِطْرَقَةٌ بَلْ كَانَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخُيُوطِ 10

و لِهَذَا قَالَ: (أَنْ أَعْمَلَ) دروع (سَيَغْنَتِ) تامات واسعات

هُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمَلَهَا مِنَ الْخَلْقِ وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ صَفَائِحُ.

(وَقَدَّرَ) المسامير (فِي السَّرْدِ) حلق الدروع

فلا تعمل الحلقة صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع و لا تجعلها كبيرة فتثقل على لبسها
*لَا تُدَقُّ الْمِسْمَارَ فَيَقْلَقُ فِي الْحَلَقَةِ وَلَا تُغْلَظُهُ فَيَفْصِمَهَا وَ اجْعَلْهُ بِقَدَرٍ.

قال تعالى:- (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

و لما ذكر ما امتن به عليه و على آله:-

1-أمره بشكره

2-و أن يعملوا صالحا (وَأَعْمَلُوا صَالِحًا)

3-و يراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه و حفظه من المفسدات

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فإنه بصير بأعمالهم مطلع عليهم لا يخفى عليه منها شيء 11

(وَلَسْلَيْتُمْ مِنَ الرِّيحِ)

لما ذكر فضله على داود عليه السلام ذكر فضله على ابنه سليمان عليه السلام و أن الله سخر له الريح تجري بأمره و تحمله و تحمل جميع ما معه و تقطع المسافة البعيدة جدا في مدة يسيرة فتسير في اليوم مسيرة شهرين

(غُدُوها شَهْرٌ) أول النهار إلى الزوال

(وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) من الزوال إلى آخر النهار

(وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ) النحاس كما يسهل الماء يعمل به ما يشاء

النحاس-و سهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني و غيرها.

(وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)

و سخر الله له أيضا الشياطين و الجن لا يقدرّون أن يستعصوا عن أمره

(وَمَنْ يَزِغْ) يَعْدِلْ وَ يَخْرُجُ (مِنْهُمْ) عَنِ (عَنْ أَمْرِنَا) الطَّاعَةِ

(نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) وَ هُوَ الْحَرِيقُ 12

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ) و أعمالهم كل ما شاء سليمان عملوه.

(مِنْ تَحَرُّبٍ) و هو كل بناء يعقد و تحكم به الأبنية فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة

*أَمَّا الْمَحَارِبُ فَهِيَ الْبِنَاءُ الْحَسَنُ وَ هُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَ صَدْرُهُ.

(وَتَمَثِيلِ) صور الحيوانات و الجمادات من إتقان صنعتهم و قدرتهم على ذلك و عملهم لسليمان

(وَجِفَانٍ) قِصَاعٌ كَبِيرَةٌ

(كَلْجَوَابٍ) كَالْأَحْوَاضِ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا الْمَاءُ - كَالْبَرْكِ الْكَبَارِ يَعْمَلُونَهَا لِسُلَيْمَانَ لِلطَّعَامِ

لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره و يعملون له

(وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ) لا تزول عن أماكنها من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم أمرهم بشكرها فقال: (اعْمَلُوا أَعَالَ دَاوُدَ)

هم داود و أولاده و أهله لأن المنّة على الجميع و كثير من هذه المصالح عائد لكلهم.

(شُكْرًا) لله على ما أعطاهم و مقابلة لما أولاهم.

*البخارى 1131 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ:-

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: أَحَبُّ الصَّلَاةِ (الصلاة المحبوبة من النوافل) إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَحَبُّ الصِّيَامِ (الصيام المحبوب من التطوع) إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ وَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَ يَقُومُ ثُلُثَهُ وَ يَنَامُ سُدُسَهُ وَ يَصُومُ يَوْمًا وَ يُفْطِرُ يَوْمًا»

*البخارى 1977 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ أَنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ وَ أَصَلِّي اللَّيْلَ فَإِنَّمَا أَرْسَلَ إِلَيَّ وَ إِنَّمَا لَقِيْتُهُ فَقَالَ: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَ لَا تُفْطِرُ وَ تُصَلِّي؟ فَصُمْ وَ أَفْطِرْ وَ قُمْ وَ نَمْ فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا وَ إِنَّ لِنَفْسِكَ وَ أَهْلِكَ عَلَيْكَ حَظًّا» (نصييا وحقا) قَالَ: إِنِّي لَأَقْوَى لِدَلِكَ قَالَ: «فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قَالَ: وَ كَيْفَ؟ قَالَ: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَ يُفْطِرُ يَوْمًا وَ لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى (العدو)» قَالَ: مَنْ لِي بِهِذِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟

قَالَ عَطَاءٌ: لَا أَذْرِي كَيْفَ ذَكَرَ صِيَامَ الْأَبَدِ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«لَا صَامَ (لم يكتب له ثواب الصيام) مَنْ صَامَ الْأَبَدَ

(الدهر والمراد هنا تابع الصيام مدة عمره ولم يفطر إلا الأيام التي يحرم صومها كالعبيدين وأيام التشريق)» مَرَّتَيْنِ

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ)

فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه و دفع عنهم من النقم-إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ.
و الشكر:

1-اعتراف القلب بمنة الله تعالى

2-و تلقيها افتقارا إليها

3-و صرفها في طاعة الله تعالى

4-و صونها عن صرفها في المعصية 13

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه السلام كل بناء و كانوا قد موهوا على الإنس و أخبروهم أنهم يعلمون الغيب و يطلعون على المكنونات فأراد الله تعالى أن يُرى العباد كذبهم في هذه الدعوى فمكثوا يعملون على عملهم و قضى الله الموت على سليمان عليه السلام

(مَا دَلَّمْهُمُ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ) وَ هِيَ الْأَرْضَةُ

(تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُمْ) عصاه التي كان متكئا عليها

فصاروا إذا مروا به و هو متكئ عليها ظنوه حيا و هابوه فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل حتى سُلِطَت دابة الأرض على عصاه فلم تزل ترعاها حتى بادت و سقطت و ضَعُفَتْ

(فَلَمَّا خَرَّ) فسقط سليمان عليه السلام و تفرقت الشياطين

(تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

و هو العمل الشاق عليهم فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم

فيه 14

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ^٤
 بَلَدَهُ طَيِّبَةً رَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ
 أَكْثِلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾
 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي
 وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
 وَمَرَقَنَاهُمْ كُلُّ مَرْقِئٍ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
 فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ
 مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ يُّرِيدُكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
 لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
 وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ)

قصة سبأ و سيل العرم 21-15

سبأ قبيلة معروفة في أداى اليمن و مسكنهم بلدة يقال لها « مأرب »

و من نعم الله و لطفه بالناس عموما و بالعرب خصوصا:-

أنه قص في القرآن أخبار المهلكين و المعاقبين ممن كان يجاور العرب و يشاهد آثاره و يتناقل الناس أخباره
 لــــ:- يكون ذلك أدعى إلى التصديق و أقرب للموعظة

(فِي مَسْكِنِهِمْ) محلهم الذى يسكنون فيه

(آيَةٌ) و الآية هنا:-

1- ما أدر الله عليهم من النعم

2- و صرف عنهم من النقم [الذى يقتضى ذلك منهم أن يعبدوا الله و يشكروه]

ثم فسر الآية بقوله (جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) مِنْ نَاحِيَتَيِ الْجَبَلَيْنِ وَ الْبَلَدَةُ بَيْنَ ذَلِكَ

* و كان لهم واد عظيم تأتية سيول كثيرة و كانوا بنوا سدا محكما يكون مجمعا للماء

فكانت السيول تأتية فيجتمع هناك ماء عظيم فيفرقونه على بساتينهم التى عن يمين ذلك الوادى و شماله.

و تُغْلَى لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم و يحصل لهم به الغبطة و السرور

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)

○ فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة -

1- هاتان الجنةان اللتان غالب أقواتهم منهما.

2- أن الله جعل بلدهم (بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ) لحسن هوائها و قلة و خمها و حصول الرزق الرغد فيها.

3- (وَرَبُّ غَفُورٌ) أن الله تعالى وعدهم - إن شكروهم - أن يغفر لهم و يرحمهم إن استمروا على التوحيد

4- أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم و مكاسبهم إلى الأرض المباركة هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر

وصولهم إليها بغاية السهولة من:-

1- الأمن و عدم الخوف

2- و تواصل القرى بينهم و بينها بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد و المزداد 15

(فَأَعْرَضُوا)

1- عمن المنعم و عن عبادته و عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ عَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ كَمَا قَالَ هُذْهُدُ سُلَيْمَانَ: -
أَوْجِثُكَ مِنْ سَبَأٍ بَنِيَّ يَقِينٍ إِلَيَّ وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ [النمل: 22 24]

2- و بطروا النعمة و لم يشكروه على ما أنعم به عليهم

3- طلبوا من الله ان يباعد بين أسفارهم

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) المراد بالعرم:- المي- اه- و قيل: الماء الغ- زير- السيل المتوعر الذي
خرب سدهم و أتلف جناتهم و خرب بساتينهم فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة و الأشجار المثمرة
و صار بدلها أشجار لا نفع فيها

* قَالَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ:

وَ قَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ سَبَبَ خَرَابِ هَذَا السِّدِّ هُوَ الْجُرْدُ فَكَانُوا يَرْضُدُونَ عِنْدَهُ السَّنَانِيرَ بُرْهَةً مِنَ
الزَّمَانِ فَلَمَّا جَاءَ الْقَدَرُ غَلَبَتِ الْفَارُ السَّنَانِيرَ وَ وَلَجَتْ إِلَى السِّدِّ فَتَنَقَّبَتْهُ فَأَنهَارَ عَلَيْهِمْ.

و لهذا قال: (وَيَذَلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ) شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا

(خَمَطٍ) وَ هُوَ الْأَرَاكُ وَ أَكَلَةُ الْبَرِير- مرٌ بشع و هو شجر الأراك

(وَأَنْبَلٍ) هُوَ السَّمَر- شجر شبيه بالطرفاء لا ثمر له

(وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُبْدَلِ بِهَا هُوَ السِّدْر- و قليل من شجر النَّبَق كثير الشوك 16

و لهذا قال: (ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا^ط)

عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَ شَرِكِهِمْ بِاللَّهِ تَكْذِيبِهِمُ الْحَقِّ وَ عُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ
* هذا من جنس عملهم فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بدلوا تلك النعمة بما ذكر

(وَهَلْ تُجْزَى) جزاء العقوبة - بدليل السياق - (إِلَّا الْكُفُورَ) إلا من كفر بالله و بطر النعمة ؟ 17

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا) قُرَى الشَّامِ-كَانُوا يَسِيرُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ (بَيْتُ الْمُقَدِّسِ)

(قُرَى ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ^ط) سيرا مقدرا يعرفونه و يحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه

(سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

مطمئنين في السير ففى تلك الليالى و الأيام غير خائفين. و هذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف.

*يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْغِبْطَةِ وَ النُّعْمَةِ وَ الْعَيْشِ الْهَرِيِّ الرَّغِيدِ وَ الْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ وَ الْأَمَاكِنِ الْأَمْنَةِ
وَ الْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَ زُرُوعِهَا وَ ثَمَارِهَا بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ
لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمَلِ زَادٍ وَ لَا مَاءٍ بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَ ثَمَرًا وَ يَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَ يَبِيتُ فِي أُخْرَى
مِقْدَارٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ

{قُرَى ظَهْرَةَ} مُتَوَاصِلَةٍ-بَيْتُهُ وَاضِحَةٌ يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ -يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَ يَبِيتُونَ فِي أُخْرَى-لا مشقة فيه

وَ لِهَذَا قَالَ: {وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ^ط} جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ

[جعلنا السير فيها مقدرا بمسافة من منزل الى منزل و من قرية الى قرية لا ينزلون الا في قرية و لا يغدون
الا في قرية (ليس المراد بقدرنا أى كتبنا و قضينا)]

{سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ} الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَ نَهَارًا 18

حتى إنهم طلبوا و تمنوا (فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) بين تلك القرى الى كان السير فيها متيسرا

(وَوَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ) بكفرهم بالله و بنعمته فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أظغتهم فأبادهها عليهم

{فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا} اجعل قُرانا متباعدة ليبعد سفرنا بينها فلا نجد قرى عامرة في طريقنا

حملهم بطر النعمة على أن سألوا ربهم بلسان حالهم و قالهم أن يباعد بين مسافات أسفارهم بإزالة تلك
المدن حتى يحملوا الزاد و يركبوا الخيول و يذوقوا طعم التعب

* هذا في الواقع هو حسد من الأغنياء للفقراء الذين لا طاقة لهم على السفر في المسافات البعيدة بدون زاد

و لا رواحل (قيل أن المسافة التي يقطعونها بين تلك المدن آمين من الجوع والخوف مسيرة أربعة أشهر ذهاباً و إياباً)

* وَ قَرَأَ آخَرُونَ: "بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا" وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ بَطَرُوا هَذِهِ النُّعْمَةَ -

وَ أَحَبُّوا مَقَاوِرَ وَ مَهَامَةَ يَحْتَاجُونَ فِي قَطْعِهَا إِلَى الزَّادِ وَ الرِّوَاكِ وَ السَّيْرِ فِي الْحَرُورِ وَ الْمَخَافِ
كَمَا طَلَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ لَهُمْ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَائِهَا وَ قَوْمِهَا وَ عَدَسِهَا
وَ بَصِلِهَا مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَيْشِ رَغِيدٍ فِي مَنْ وَ سَلَوَى وَمَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَأْكَلٍ وَ مَشَارِبٍ وَ مَلَابِسٍ مُرْتَفَعَةٍ

وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: 61] وَ قَالَ تَعَالَى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [القصص: 58]
 وَ قَالَ تَعَالَى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112]

وَ قَالَ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ: {وَضَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} بِبُغْهِهِمْ

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) يتحدث بهم و أسمارا للناس وَ كَيْفَ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ

وَ كَانَ يَضْرِبُ بِهِمُ الْمَثَلَ فَيَقَالُ: « تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأ » (مذاهب سبأ و طرقها) - ذهبوا شذر مذر

(وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ)

وَ فَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ وَ الْأَلْفَةِ وَ الْعَيْشِ الْهَرِيِّ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَاهُنَا وَ هَاهُنَا (ليس المراد أنه أهلكهم و قطع أجسادهم)

فَرَقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ تَفْرِيقٍ حَيْثُ لَا يَرْجَى لَهُمْ عَوْدُ اتِّصَالٍ أَبَدًا:-

1- فذهب الأوس و الخزرج إلى يثرب "المدينة النبوية" و هم الأنصار

2- و ذهب غسان و جذام و لخم إلى الشام

3- و الأزد إلى عُمان

4- و خزاعة إلى تهامة

وَ لَكِنْ لَا يَنْتَفِعُ بِالْعِبَرَةِ فِيهِمْ إِلَّا مَنْ قَالَ اللَّهُ:-

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ) على المكاره و الشدائد يتحملها لوجه الله و لا يتسخطها بل يصبر عليها.

(شَكُورٍ) لنعمة الله تعالى يُقَرُّ بها و يعترف و يشني على من أولاهها و يصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم و ما جرى منهم و عليهم عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله

وَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ مِثْلَهُمْ فَعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِهِمْ وَ أَنَّ شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى حَافِظٌ لِلنِّعْمَةِ دَافِعٌ لِلنَّقْمَةِ

وَ أَنَّ رِسْلَ اللَّهِ صَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَ أَنَّ الْجَزَاءَ حَقٌّ كَمَا رَأَى أَنْموذجه في دار الدنيا

*مسلم (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ

وَ لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ **19**

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ) ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم

(إِبْلِيسَ ظَنَّهُ) حيث قال لربه: (فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

وَ هَذَا ظَنُّ مَنْ إِبْلِيسَ لَا يَقِينُ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَمْ يَأْتِهِ خَبَرُ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ سَيُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا مَنْ اسْتَشَى

فهؤلاء و أمثالهم ممن صدق عليه إبليس ظنه و دعاهم و أغواهم

* قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ غَيْرُهُ:- هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ

ثُمَّ قَالَ: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَيْنِ أَخْرَتَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإشراء: 62]
ثُمَّ قَالَ: {ثُمَّ لَا يَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 17]

(فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

ممن لم يكفر بنعمة الله فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

و يحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله:-(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) 20

ثم ابتداء فقال: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ) على جنس الناس فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

ثم قال تعالى:-(وَمَا كَانَ لَهُ) لإبليس

(عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) حجة-تسلط و قهر و قسر على ما يريده منهم

و قَالَ الْحَسَن:-

وَاللَّهُ مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصَا وَ لَا أَكْرَهَهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَ مَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَ أَمَانِي دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ.
و لكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه و تسويله لبري آدم.

(إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيَنَّهُمْ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ)

أي: _____-

1-يقوم سوق الامتحان

2-و يعلم به الصادق من الكاذب

3-و يعرف من كان إيمانه صحيحا يثبت عند الامتحان و الاختبار و إلقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه

غير ثابت يتزلزل بأدنى شبهة و يزول بأقل داع يدعو به إلى ضده

4-فالله تعالى جعله امتحانا يمتحن به عباده و يظهر الخبيث من الطيب.

(وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ)

يحفظ العباد و يحفظ عليهم أعمالهم و يحفظ تعالى جزاءها فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

*وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ وَ بِحِفْظِهِ وَ كِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ 21

(قُلْ) يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع و لا تضر ملزما لهم بعجزها و مبينا لهم

بطلان عبادتها:-

شبه و مآل المشركين يوم القيامة 22-33

(ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز و عدم إجابة الدعاء من كل وجه

فإنهم ليس لهم أدنى ملك

فـ(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) على وجه الاستقلال و لا على وجه الاشتراك

*كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فَاطِر: 13]

و لهذا قال: (وَمَا لَهُمْ) لتلك الآلهة الذين زعمتم

(فِيهِمَا) في السماوات و الأرض

(مِنْ شِرْكٍ) لا شرك قليل و لا كثير فليس لهم ملك و لا شركة ملك.

بقي أن يقال: و مع ذلك فقد يكونون أعوانا للمالك و وزراء له فدعائهم يكون نافعا لأنهم -

بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم فنفي تعالى هذه المرتبة

فقال: (وَمَا لَهُمْ) لله تعالى الواحد القهار

(مِنْهُمْ) من هؤلاء المعبودين

(مِنْ ظَهِيرٍ) معاون و وزير يساعده على الملك و التدبير.

*وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يُسْتَظْهَرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءٌ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ 22



وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ^{٢٣} حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ^{٣١} وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها بقوله: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ^{٢٣})

*لِعَظَمَتِهِ وَ جَلَالِهِ وَ كِبَرِيَّائِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَىٰ فِي شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: 255]

وَ قَالَ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ} [النجم: 26]

وَ قَالَ: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: 28]

* وَ لِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَ هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَ أَكْبَرُ شَفِيعٍ عِنْدَ اللَّهِ - أَنَّهُ حِينَ يَقُومُ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ لِيَشْفَعَ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَأْتِيَ رَبَّهُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ

* البخارى 7410- قال النبى ﷺ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقَالَ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدٌ وَ قُلْ يُسْمَعُ وَ سَلْ تُعْطَىٰ وَ اشفَعْ تُشَفَّعْ فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدِ عِلْمِنِيهَا ثُمَّ اشفَعْ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَرْجِعْ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقَالَ: ارْفَعْ مُحَمَّدٌ وَ قُلْ يُسْمَعُ وَ سَلْ تُعْطَىٰ وَ اشفَعْ تُشَفَّعْ فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدِ عِلْمِنِيهَا رَبِّي ثُمَّ اشفَعْ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَرْجِعْ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقَالَ:

ارْفَعْ مُحَمَّدٌ قُلْ يُسْمَعُ وَ سَلْ تُعْطَىٰ وَ اشفَعْ تُشَفَّعْ

فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدِ عِلْمِنِيهَا ثُمَّ اشفَعْ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ

فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم و أوثانهم من: -البشر و الشجر و غيرهم

قطعها الله و بين بطلانها تبيننا حاسما لمواد الشرك قاطعا لأصوله

لأن المشرك إنما يدعو و يعبد غير الله لما يرجو منه من النفع فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك

* فإذا كان من يدعو غير الله لا مالكا للنفع و الضر و لا شريكا للمالك و لا عوناً و ظهيراً للمالك و لا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك كان هذا الدعاء و هذه العبادة ضلالاً في العقل باطلة في الشرع. بل ينعكس على المشرك مطلوبه و مقصوده فإنه يريد منها النفع فين الله بطلانه وعدمه

* و بين في آيات أخر ضرره على عابديه و أنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض و يلعن بعضهم بعضاً و مأواهم النار (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

* و العجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه أنهم بشر و رضى أن يعبد و يدعو الشجر و الحجر استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان و رضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه طاعة لأعدى عدو له و هو الشيطان.

و قوله: (حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ)

أولاً: -يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين: - لأنهم مذكورون في اللفظ و القاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور و يكون المعنى: إذا كان يوم القيامة و فزع عن قلوب المشركين أي: زال الفزع و سئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا و تكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر و الشرك باطل

(قَالُوا الْحَقُّ) و أن ما قال الله و أخبرت به عنه رسله هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل و علموا أن الحق للهو اعترفوا بذنوبهم.

(وَهُوَ الْعَلِيُّ) بذاته فوق جميع مخلوقاته و قهره لهم و علو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار (الْكَبِيرُ) في ذاته و صفاته.

و من علوه:-

أن حكمه تعالى يعلو و تدعن له النفوس حتى نفوس المتكبرين و المشركين.

و هذا المعنى أظهر و هو الذي يدل عليه السياق

ثانياً: -يحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة:-

و ذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة فصعقوا و خروا لله سجداً

فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد

و إذا زال الصعق عن قلوب الملائكة و زال الفزع فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه:- ماذا قال ربكم؟

فيقول بعضهم لبعض:

قال الحق إما إجمالاً لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا

و إما أن يقولوا: قال كذا و كذا للكلام الذى سمعوه منه و ذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا:-

أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة التي وصفنا لكم عجزها و نقصها و عدم نفعها بوجه من الوجوه كيف صدقوا و صرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلى الكبير الذي - من عظمته و جلاله - أن الملائكة الكرام و المقربين من الخلق يبلغ بهم الخضوع و الصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ و يقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه و عظمة ملكه و سلطانه.

فتعالى العلى الكبير عن شرك المشركين و إفكهم و كذبهم.

* البخارى 4800 - عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ:

الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَ مُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -

وَ وَصَفَ سُفْيَانُ بَكْفَهُ فَحَرَفَهَا وَ بَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ

ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَ رُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةً فَيُقَالُ:

أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَ كَذَا: كَذَا وَ كَذَا فَيَصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ **23**

يأمر تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله و يسأله عن حجة شركه:-

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فإنهم لا بد أن يقولوا أنه الله و لكن لم يقولوا

فـ **(قُلِ اللَّهُ)** فإنك لا تجد من يدفع هذا القول فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات و الأرض

و ينزل لكم المطر و ينبت لكم النبات و يفجر لكم الأنهار و يطلع لكم من ثمار الأشجار

و جعل لكم الحيوانات جميعها لنفعكم و رزقكم فلم تعبدون معه من لا يرزقكم شيئا و لا يفيدكم نفعاً؟.

و قوله: **(وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)**

إحدى الطائفتين منا و منكم على الهدى مستعلية عليه

* هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَ النَّشْرِ أَيْ: وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُبْطِلٌ وَ الْآخَرُ مُحِقٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ

وَ نَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ بَلْ وَاحِدٌ مِّنَّا مُصِيبٌ وَ نَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَدَلَّ عَلَى

بُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ

(أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) منغمرة فيه

و هذا الكلام يقوله من تبين له الحق و اتضح له الصواب و جزم بالحق الذي هو عليه و بطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا و عندكم ما به يعلم علما يقينا لا شك فيه من المحق منا

و من المبطل و من المهتدي و من الضال؟

حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه فإنك إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات المسدي جميع النعم الذي رزقهم و أوصل إليهم كل نعمة و دفع عنهم كل نقمة الذي له الحمد كله و الملك كله و كل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيبته متذللون لعظمته و كل الشفعاء تخافه لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير في ذاته و أوصافه و أفعاله الذي له كل كمال و كل جلال و كل جمال و كل حمد و ثناء و مجد يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه و إخلاص العمل له و ينهى عن عبادة من سواه و بين من يتقرب إلى أوثان و أصنام و قبور لا تخلق و لا ترزق و لا تملك لأنفسها و لا لمن عبدها نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا بل هي جمادات لا تعقل و لا تسمع دعاء عابديها و لو سمعته ما استجابت لهم و يوم القيامة يكفرون بشركهم و يتبرأون منهم و يتلاعنون بينهم ليس لهم قسط من الملك و لا شركة فيه و لا إعانة فيه و لا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله فهو يدعو من هذا وصفه و يتقرب إليه مهما أمكنه و يعادي من أخلص الدين لله و يحاربه و يكذب رسل الله الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده تبين لك أي الفريقين المهتدي من الضال و الشقي من السعيد؟

و لم يحتج إلى أن يعين لك ذلك لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال **24**

(قُلْ) لهم (لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) كل منا و منكم له عمله أنتم

(لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا) معناه التبرى منهم-عن إجرامنا و ذنوبنا لو أذنبنا

(وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) و نحن لا نسأل عن أعمالكم

فليكن المقصود منا و منكم طلب الحقائق و سلوك طريق الإنصاف و دعوا ما كنا نعمل و لا يكن مانعا لكم من اتباع الحق فإن أحكام الدنيا تجرى على الظواهر و يتبع فيها الحق و يجتنب الباطل

* كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يُونُس: 41] وَ قَالَ: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سُورَةُ الْكَافِرُونَ] **25**

* و أما الأعمال فلها دار أخرى يحكم فيها أحكم الحاكمين و يفصل بين المختصمين أعدل العادلين

و لهذا قال:- (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا)

يحكم بيننا حكما يتبين به الصادق من الكاذب و المستحق للثواب من المستحق للعقاب

(ثُمَّ يَفْتَحُ) يقضى (بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) بالعدل

(وَهُوَ الْفَتَّاحُ) الحاكم العادل بين خلقه و هو خير الفاتحين.

(الْعَلِيمُ) الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ 26

(قُلْ) لهم يا أيها الرسول و من ناب منابك:-

(أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ) أي هم؟

و أين السبيل إلى معرفتهم؟

و هل هم في الأرض أم في السماء؟

فإن عالم الغيب و الشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

و كذلك خواص خلقه من الأنبياء و المرسلين لا يعلمون له شريكا فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتهم

بزعمكم الباطل بالله

(شُرَكَاءَ) أَرُونِي هَذِهِ الْأَلِهَةِ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا لِلَّهِ أَنْدَادًا و صيرتموها له عدلا.

* و هذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه و لهذا قال:-

(كَلَّا) ليس لله شريك و لا ند و لا ضد.

(بَلْ هُوَ اللَّهُ) الذي لا يستحق التأله و التعبد إلا هو

(الْعَزِيزُ) الذي قهر كل شيء فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مدبر.

(الْحَكِيمُ) في أقواله و أفعاله و تدبير أمور خلقه-الذي أتقن ما خلقه و أحسن ما شرعه

و لو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده و إخلاص الدين له و أحب ذلك وجعله طريقا للنجاة

و نهى عن الشرك به و اتخاذ الأنداد من دونه و جعل ذلك طريقا للشقاء و الهلاك لكفى بذلك برهانا على

كمال حكمته فكيف و جميع ما أمر به و نهى عنه مشتمل على الحكمة؟ 27

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) إلا للناس أجمعين

* البخارى 335 - قال النبي ﷺ وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "

إلا (بَشِيرًا) ليبشر جميع الناس بثواب الله و يخبرهم بالأعمال الموجهة لذلك -تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالْجَنَّةِ

(وَنَكْذِرًا) وَ تُنذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ-و يندرهم عقاب الله و يخبرهم بالأعمال الموجهة له

*فليس لك من الأمر شيء و كل ما اقترح عليك أهل التكذيب و العناد فليس من وظيفتك إنما ذلك بيد الله تعالى

* كَهْوَلِهِ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: 158]

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: 1]

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ليس لهم علم صحيح

* كَهْوَلِهِ {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: 103] {وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام: 116].

بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم فكأنهم لا علم لهم 28

و من عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجبا لرد دعوته

فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أُنذِرهم به فقال: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

* كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: 18].

○ وهذا ظلم منهم. فأى ملازمة بين صدقه و بين الإخبار بوقت وقوعه؟

و هل هذا إلا رد للحق و سفه في العقل؟

أليس النذير في أمر فى أحوال الدنيا لو جاء قوما يعلمون صدقه و نصحه

و لهم عدو ينتهز الفرصة منهم و يُعَدُّ لهم فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم.

فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا و أين مكانه الآن؟

فهل يعد هذا القائل عاقلاً أم يحكم بسفه و جنونه؟ هذا و المخبر يمكن صدقه و كذبه

و العدو قد يبدو له غيرهم و قد تنحل عزيمته و هم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم

فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره الذى لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين الذي لا مدفع له

و لا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه؟ 29

(قُلْ) لهم -مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه:-

(لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةً) للتوبة (وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) ساعةً قبله للعذاب 30

فاحذروا ذلك اليوم و أعدوا له عدته.

* يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ وَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ) نصدّق

(بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) تقدّمه من التوراة و الإنجيل و الزبور فقد كذبوا بجميع كتب الله.

لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم

(وَلَوْ تَرَىٰ)

و أنك لو رأيت حالهم لرأيت أمرا عظيما و هولا جسيما

(إِذِ الظَّالِمُونَ) الرؤساء و الأتباع فعى الكفر و الضلال

فهم (مَوْفُوفُونَ) محبسون

(عِنْدَ رَبِّهِمْ) للحساب

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ)

يتراجعون الكلام فيما بينهم كل يُلقى بالعتاب على الآخر لرأيت شيئا فظيعاً

ف—(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا) و هم الأتباع

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) و هم القادة:—

(لَوْلَا أَنْتُمْ) تَصُدُّونَا لَكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُلَ وَ آمَنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ.

(لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

و لكنكم حُلُتُمْ بيننا و بين الإيمان و زينتم لنا الكفر فتبعناكم على ذلك

و مقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم **31**

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُرْبَلٌ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا) مستفهمين لهم و مخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم:-

(أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُرْبَلٌ) بقوتنا و قهرنا لكم.

* نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنَا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَ لَا بُرْهَانٍ وَ خَالَفْتُمُ الْإِدْلَةَ وَ الْبَرَاهِينَ وَ الْحُجَجَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ لِشَهَوَتِكُمْ وَ اخْتِيَارِكُمْ لِذَلِكَ وَ لِهَذَا قَالُوا:-

(كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ) مختارين للإجرام لستم مقهورين عليه و إن كنا قد زينا لكم فما كان لنا عليكم من سلطان 32

(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا) الذي دهانا منكم و وصل إلينا من إضلالكم

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ) تدبيركم الشر لنا

في (الَّيْلِ وَالنَّهَارِ) هو الذي أوقعنا في التهلكة

(إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ)

إِذْ تُحَسِّنُونَ لَنَا الْكُفْرَ وَ تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ تَقُولُونَ:- إنه الحق و تقدحون في الحق و تهجنونه و تزعمون أنه الباطل فما زال مكرهم بنا و كيدكم إيانا حتى أغويتمونا و فتنتمونا.

(وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا) نُظَرَاءَ وَ آلِهَةً مَعَهُ وَ تَقِيمُوا لَنَا شُبَّهَا وَ أَشْيَاءَ مِنَ الْمُحَالِ تُضِلُّونَا بِهَا

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئا إلا تباري بعضهم من بعض و الندامة العظيمة

و لهذا قال: (وَأَسْرُوا) و أسرَّ كُلُّ من الفريقين

(النَّدَامَةُ) الحسرة

(لَمَّا) حين (رَأَوْا الْعَذَابَ) الذي أُعدَّ لهم

زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب و علم أنه ظالم مستحق له
*فندم كل منهم غاية الندم و تمنى أن لو كان على الحق و أنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب سرا
فى أنفسهم لخوفهم من الفضيحة فى إقرارهم على أنفسهم.

و فى بعض مواقف القيامة و عند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرا.

(وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)
(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ) وَ هِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَعْنَاقِهِمْ

(الَّذِينَ كَفَرُوا) يغفلون كما يغفل المسجون الذى سيهان فى سجنه كما قال تعالى -

(إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)

(هَلْ يُجْزَوْنَ)

فى هذا العذاب و النكال و تلك الأغلال الثقال- كُلُّ بِحَسْبِهِ لِقَادَةِ عَذَابٍ بِحَسْبِهِمْ وَ لِلْآتِبَاعِ بِحَسْبِهِمْ

(إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الكفر و الفسوق و العصيان {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 38] 33

طبيعة المترفين و جوابهم لرسولهم 34-35

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ)

يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسول أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ
و أن الله إذا أرسل رسولا فى قرية من القرى

(إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَُا)

هُمْ أَوَّلُو النِّعْمَةِ وَ الْحِشْمَةِ وَ الثَّرْوَةِ وَ الرِّيَاسَةِ-المنغمسون فى اللذات و الشهوات من أهلها

(إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَ لَا نَتَّبِعُهُ-كفر به مترفوها و أبطرتهم نعمتهم و فخرها بها.

*يَقُولُ تَعَالَى مُسْلِيًّا لِنَبِيِّهِ وَ أَمْرًا لَهُ بِالتَّأْسَى مِمَّنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَ مُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا كَذَّبَهُ
مُتَرَفُّوهَُا وَ اتَّبَعَهُ ضَعَفَاؤُهُمْ

كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ:-{أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ} [الشعراء: 111]

{وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ} [هود: 27]

وَقَالَ الْكَبَرَاءُ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ: {لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [الأعراف: 75 76] 34

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا) ممن اتبع الحق

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) لسنا بمبعوثين

فإن بعثنا فالذى أعطانا الأموال والأولاد فى الدنيا سيعطينا أكثر من ذلك فى الآخرة و لا يعذبنا.

{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: 36]

* قَالَ اللَّهُ {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: 55 56]

وَقَالَ: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: 55]

وَقَالَ تَعَالَى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا* وَبَنِينَ شُهُودًا* وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ*} كَلَّا إِنَّهُ

كَانَ لَأَيَاتِنَا عَنِيْدًا* سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا} [المدثر: 11-17] 35

سنة الله فى عباده 39-36

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

فأجابهم الله تعالى بـ أن :- بسط الرزق و تضيقه ليس دليلا على ما زعمتم

* فإن الرزق تحت مشيئة الله إن شاء بسطه لعبده و إن شاء ضيقه.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أن ذلك اختبار لعباده لأنهم لا يتأملون 36

(وَمَا) ليست (أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا) إلى الله

(زُلْفَى) قربى- و تدنى إليه

* مسلم:- (2564) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَ أَمْوَالِكُمْ وَ لَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَ أَعْمَالِكُمْ»

(إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

و إنما الذي يقرب منه زلفى:-

1-الإيمان بما جاء به المرسلون

2-و العمل الصالح الذى هو من لوازم الإيمان

(فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ)

الجزاء عند الله تعالى مضاعفا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله

(بِمَا عَمِلُوا)

(وَهُمْ فِي الْعُرْفَتِ) فى المنازل العاليات المرتفعات جدا ساكنين فيها مطمئنين

(**ءَامِنُونَ**) من المكدرات و المنغصات لما هم فيه من اللذات و أنواع المشتبهات

(**ءَامِنُونَ**) من الخروج منها و الحزن فيها **37**

(**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ**) على وجه التعجيز لنا و لرسلنا و التكذيب

ف—(**أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**) (جَمِيعُهُمْ مَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا بِحَسَبِهِمْ **38**)

(**قُلْ إِنْ رَّبِّي**) ثم أعاد تعالى أنه (**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ**) يضيق

ليرتب عليه قوله: (**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**)

نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك

(**فَهُوَ**) تعالى (**يُخْلِفُهُ**) فهو يعوضه لكم في الدنيا بالبدل و في الآخرة بالثواب

* فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر

* البخارى 4684 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: -قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ

(**وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ**)

فطلبوا الرزق منه و اسعوا فى الأسباب التي أمركم بها—أما خلق الرزق فهو لله تعالى وحده **39**

.....

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَكُمْ ﴿٤٠﴾
 قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
 فَأَلَيْكُمُ الْيَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾
 وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ ءَابَائِكُمْ
 وَقَالَ مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا كَفَرْتُمْ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾
 وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ
 أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ
 عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾
 قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

الإيمان بالبعث 40-54

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) لعابدين لغير الله و المعبودين من دونه من الملائكة

(ثُمَّ يَقُولُ) الله (لِلْمَلَائِكَةِ) على وجه التوبيخ لمن عبدهم

(أَهْتُولَاءِ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَكُمْ) ففتبرأوا من عبادتهم.

* أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ؟ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: {ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} [الْفُرْقَانِ: 17] وَ كَمَا يَقُولُ لِعِيسَى:

{ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُتَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ [الْمَائِدَةِ: 116] 40

و (قَالُوا سُبْحَانَكَ) تنزيها لك و تقديسا أن يكون لك شريك أو ند

(أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ) نَحْنُ عِبِيدُكَ وَ نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ

* فنحن مفتقرون إلى ولايتك مضطرون إليها فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟

أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء و شركاء؟

و (بَلْ) لكن هؤلاء المشركون (كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) الشياطين يأمرون بعبادتنا أو عبادة غيرنا فيطيعونهم بذلك.

و طاعتهم:-

هى عبادتهم لأن العبادة الطاعة كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)
*لَا تَنْهَمُ هُمْ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَ يُضِلُّونَهُمْ

(أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) مصدقون للجن منقادون لهم لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد

*كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء: 117] 41

*فلما تبرأوا منهم قال تعالى مخاطبا لهم:-

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) تقطعت بينكم الأسباب و انقطع بعضكم من بعض

(وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) تَقْرِيعًا وَ تَوْبِيخًا المشركون- بالكفر و المعاصي - بعد ما ندخلهم النار -

(ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

فاليوم عاينتموها و دخلتموها جزاء لتكذبيكم و عقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابه 42

(وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ) على كفار «مكة» (أَيُّنَا) آيات الله

(يَنْتَدِبُ) الواضحات و حجه الظاهرات و براهينه القاطعات الدالة على كل خير الناهية عن كل شر البقي

هـ ي أعظم نعمة جاءتهم و مِنَّةٍ وصلت إليهم الموجبة لمقابلتها بالإيمان و التصديق و الانقياد و التسليم أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي و يكذبون من جاءهم بها

(قَالُوا مَا هَذَا) ما محمد (إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ) يرغب (أَنْ يَصُدَّكُمْ) أن يمنعكم

(عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ) من الآلهة

هذا قصده حين يأمرهم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون و تمشون خلفهم فردوا الحق بقول الضالين و لم يوردوا برهانا و لا شبهة.

فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادَّعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟ و هذه السفاهة و رد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد

فإذا هذا مآله لا يرد إلا بأقوال الضالين من-

المشركين و الدهريين و الفلاسفة و الصابئين و الملحدين في دين الله المارقين فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

*و لما احتجوا بفعل آبائهم و جعلوها دافعة لما جاءت به الرسل طعنوا بعد هذا بالحق

(وَقَالُوا مَا هَذَا) القرآن (إِلَّا إِفْكٌ) كذب (مُفْتَرًى) جئت به من عند نفسك و ليس من عند الله

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ) أى القرآن

(لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) ظاهر بين لكل أحد تكذيبا بالحق و ترويجا على السفهاء 43

* ولما بيّن ما ردوا به الحق و أنها أقوال دون مرتبة الشبهة فضلا أن تكون حجة ذكر أنهم و إن أراد أحد أن يحتج لهم فإنهم لا مستند لهم و لا لهم شيء يعتمدون عليه أصلا فقَالَ:-

(وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) حتى تكون عمدة لهم

(وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ) أيها الرسول (من نَذِيرٍ) رسول يندرهم بأسنا

حتى يكون عندهم من أقواله و أحواله ما يدفعون به ما جئتهم به فليس عندهم علم و لا أثارة من علم⁴⁴ ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم فقال:-

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا) ما بلغ أهل «مكة»

(مَعْشَارٍ) عَشْرَ (مَا آتَيْنَهُمْ) هؤلاء الأمم السابقة من القوة و كثرة المال و طول العمر و غير ذلك من النعم كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفِيدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الْحَقَّافِ: 26]

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً [عَافٍ: 82] أَيْ: وَ مَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَ لَا رَدَّه بَلْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَ لِهَذَا قَالَ:- (فَكَذَّبُوا) الأمم الذين من قبلهم

(رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) نَكَالِي وَ عِقَابِي وَ انتِصَارِي لِرُسُلِي ؟

قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال

و أن منهم من أغرقه

و منهم من أهلكه بالريح العقيم

و بالصيحة

و بالرجفة

و بالخسف بالأرض

و بإرسال الحاصب من السماء

فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب فيأخذكم كما أخذ من قبلكم و يصيبكم ما أصابهم⁴⁵

(قُلْ) يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق و تكذيبه و القدح بمن جاء به:-

(إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ) أمركم

(بِوَحْدَةٍ) بخصلة واحدة أشير عليكم بها و أنصح لكم في سلوكها و هى طريق نصف لست أدعوكم بها إلى

اتباع قولى و لا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك

و هي (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ) (تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ:-

1- مِنْ غَيْرِ هَوَى

2- وَ لَا عَصِيَّةٍ

3- بهمة و نشاط و قصد لاتباع الصواب

4- و متباحثين في ذلك

كل واحد يخاطب نفسه بذلك متناظرين (مثنى) اثنين اثنين (وَفَرْدَى) واحداً واحداً

(ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ) في حال صاحبكم رسول الله و فيما نسب إليه ﷺ (مَنْ جَنَّةٍ) من جنون

* فإذا قمتم لله مثنى و فرادى استعملتم فركم و أجلتموه و تدبرتم أحوال رسولكم هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه و هيئته و صفته؟

أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

* فلو قبلوا هذه الموعظة و استعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون:—

* لأن هيئته ليست كهيئات المجانين ففى خنقهم و اختلاجهم و نظرهم

* بل هيئته أحسن الهيئات و حركاته أجل الحركات و هو أكمل الخلق أدبا وسكينة و تواضعا و وقارا لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلا.

* ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح و لفظه المليح و كلماته التي تملأ القلوب أمنا و إيمانا و تركى النفوس و تطهر القلوب و تبعث على مكارم الأخلاق و تحت على محاسن الشيم و ترهب عن مساوئ الأخلاق و رذائلها إذا تكلم رmqته العيون هيبة و إجلالا و تعظيما.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين و عربدتهم و كلامهم الذي يشبه أحوالهم؟

* فكل من تدبر أحواله و مقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟

سواء تفكر وحده أو مع غيره جزم بأنه رسول الله حقا و نبيه صدقا خصوصا المخاطبين الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره و آخره.

(إِنْ هُوَ) ما هو ﷺ (إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ) أمام (عَذَابٍ شَدِيدٍ) قد ينزل بكم

و هو مشفق عليكم في ذلك خائف لا يريده لكم.

* البخارى 4801 - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفا ذاتِ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ»

(كلمة تقال للإشعار بإغارة العدو لأن الغالب في الإغارة أن تكون وقت الصباح كما يقولها من أصابه شيء مكروه للاستغاثة)

فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّكُمْ

أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى قَالَ: «فَأِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّأَ لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: 1]

* و ثم مانع للنفوس آخر عن اتباع الداعى إلى الحق و هو أنه يأخذ أموال من يستجيب له

و يأخذ أجرة على دعوته. فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر فقال:-

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) على اتباعكم للحق

(فَهُوَ لَكُمْ) فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) إِنَّمَا أَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) محيط علمه بما أدعو إليه فلو كنت كاذبا لأخذني بعقوبته و شهيد أيضا على أعمالكم سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

* و لما بين البراهين الدالة على صحة الحق و بطلان الباطل أخبر تعالى أن هذه سنته و عادته أن يقذف بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَذْمُغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) لأنه بين من الحق في هذا الموضع و رد به أقوال المكذبين ما كان عبرة للمعتبرين و آية للمتأملين.

(قُلْ) أيها الرسول لمن أنكر التوحيد و رسالة الإسلام

(إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ) الباطل بحجج من الحق فيفضحه و يهلكه

إِبْلُ تَقْذِيفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَذْمُغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ [الأنبياء: 18]

* فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوال المكذبين و تبين كذبهم و عنادهم و ظهر الحق و سطع و بطل الباطل و انقمع

و ذلك بسبب بيان (عَلَّمُ الْغُيُوبِ) لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

الذي يعلم ما تنطوى عليه القلوب من الوسوس و الشبه و يعلم ما يقابل ذلك و يدفعه من الحجج 48

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

35-سورة فاطر-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُؤَفَّكُونَ ﴿٣﴾

فيعلم بها عبادته و يبينها لهم و لهذا قال: (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ) ظهر و بان و صار بمنزلة الشمس و ظهر سلطانه (وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

فلم يبق للباطل شيء يبدؤه و يعيده-اضمحل و بطل أمره و ذهب سلطانه فلا يبدئ و لا يعيد. لَمْ يَبْقَ لِلْبَاطِلِ مَقَالَةٌ وَ لَا رِيَاسَةٌ وَ لَا كَلِمَةٌ 49

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ)ملت عن الحق

* و لما تبين الحق بما دعا إليه الرسول و كان المكذبون له يرمونه بالضلال أخبرهم بالحق و وضحه لهم و بين لهم عجزهم عن مقاومته و أخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً و لا دافع ما جاء به. و أنه إن ضل - و حاشاه من ذلك لكن على سبيل التنزل في المجادلة -

(فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي)فإنما يضل على نفسه أى:-ضلاله قاصر على نفسه غير متعد إلى غيره.

* كَقَوْلِهِ: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: 18]

وَ لِهُذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

*البخارى2478 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:-

دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ (يَوْمَ الْفَتْحِ) وَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَ سِتُونَ نَصَبًا

(صنما وقيل كل حجر نصب و عبد أو عظم وقيل غير ذلك)فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا (من الطعن و هو الضرب و الوخز) بِعُودٍ فِي يَدِهِ

وَجَعَلَ يَقُولُ:- {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: 81] الآية (زَهَقَ:- هلك واضمحل)

(وَلَيْنَ اهْتَدَيْتَ) استقيمت عليه فليس ذلك من نفسى و حولى و قوتى

(فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ) فبوحى الله الذى يوحيه إلىَّ (فهو مادة هدايتى كما هو مادة هداية غيرى)

إن ربي (سَمِيعٌ) للأقوال و الأصوات كلها

(قَرِيبٌ) ممن دعاه و سألته و عبده.

*البخارى 4205 - عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْبَرَ أَوْ قَالَ: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ:-
اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا
إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَ هُوَ مَعَكُمْ» وَ أَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَنِي وَ أَنَا أَقُولُ:-
لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ لِي: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ».
قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ (أى أجراها مدخر لقاتلها و المتصف بها كما يدخر الكنز و هو المال المجموع المحرز)

قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَاكَ أَيْ وَ أُمِّى قَالَ: «لَا حَوْلَ (قدرة على دقة التصرف في الأمور) وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» 50

يقول تعالى (وَلَوْ تَرَى) أيها الرسول و من قام مقامك حال هؤلاء المكذبين

(إِذْ فَرَعُوا) خافوا و نفروا حين رأوا العذاب و ما أخبرتهم به الرسل و ما كذبوا به لرأيت أمرا هائلا و منظرا
مفضعا و حالة منكرة و شدة شديدة و ذلك حين يحق عليهم العذاب.

(فَلَا فَوْتَ) فليس لهم عنه مهرب و لا فوت

(وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) ليس بعيدا عن محل العذاب بل يؤخذون ثم يقذفون فى النار.
لَمْ يَكُونُوا يُنْعَوْنَ فِي الْهَرَبِ بَلْ أُخِذُوا مِنْ أَوَّلٍ وَهَلَةٍ.

أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ الطَّامَّةُ الْعُظْمَى وَ إِنَّ كَانَ مَا ذُكِرَ مُتَّصِلًا بِذَلِكَ 51

(وَقَالُوا) فى تلك الحال يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(ءَامَنَّا) صدقنا ما به كذبنا فى الدنيا (صدقنا بالله وَ بِكُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ)

كقوله (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [السَّجْدَة: 12]

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى (وَ) لكن (وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ)

تناول الإيمان (و هم فى الآخرة) (ليس المراد بالتناوش أى الاشتباك و الاقتتال)

(مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ {وَوَصَّارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ} وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارُ الْإِبْتِلَاءِ
فَلَوْ كَانُوا آمِنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعَهُمْ وَ لَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قَبُولِ
الْإِيمَانِ كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ 52

(و) لكنهم (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ) يرمون-يَرْجُمُونَ

(بِالْغَيْبِ) بالظن (لَا بَعَثَ وَ لَا جَنَّةَ وَ لَا نَارَ)

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {رَبِّمَا بِالْغَيْبِ} [الْكَهْفِ: 22]

فَتَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ. وَ تَارَةً يَقُولُونَ: كَاهِنٌ. وَ تَارَةً يَقُولُونَ: سَاحِرٌ.
وَ تَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ وَ يُكَذِّبُونَ بِالْغَيْبِ وَ النُّشُورِ وَ الْمَعَادِ
وَ يَقُولُونَ: {إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ} [الْجَاثِيَةِ: 32].

(مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) بقذفهم الباطل ليدحضوا به الحق -

و لكن لا سبيل لإصابتهم الحق كما لا سبيل للرامى إلى إصابة الغرض (((عن إصابة الحق))) من مكان بعيد
*فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه

و إنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه فإذا برز الحق و قاوم الباطل قمعه 53

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) الإيمان-التوبة-من الشهوات و اللذات و الأولاد و الأموال و الخدم و الجنود
قد انفردوا بأعمالهم و جاءوا فرادى كما خلقوا و تركوا ما خولوا وراء ظهورهم

(كَمَا فَعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ) من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينهم و بين ما يشتهون
{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غَافِرٍ: 84 85].

(إِنَّهُمْ كَانُوا) في الدنيا (فِي شَكٍّ) من أمر الرسل و البعث و الحساب

(مُشْرِبٍ) محدث الريبة و قلق القلب فلذلك لم يؤمنوا و لم يعتبوا حين استعتبوا

فَلِهَذَا لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ 54

◀ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ سبأ: ٥٤

عن سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماءً مُبَرَّدًا فبكى فاشتد
بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ففرقت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماء،
وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الاعراف: ٥٠

35- تفسير سورة فاطر و هي مكية

تفسير ابن كثير عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بئرٍ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَنَا فَطَرْتُهَا أَنَا بَدَأْتُهَا. *وَقَالَ الصَّحَّاحُ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ: خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ

الثناء على الله 4-1

*يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات و الأرض و ما اشتملتا عليه من المخلوقات

لأن ذلك دليل على:-

كمال قدرته و سعة ملكه و عموم رحمته و بديع حكمته و إحاطة علمه.

* لما ذكر الخلق ذكر بعده ما يتضمن الأمر و هـ —و:-

- 1- أنه (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) في تدبير أوامره القدريّة - و وسائط بينه و بين خلقه في تبليغ أوامره الدنيّة.
 - 2- و في ذكره أنه جعل الملائكة رسلا و لم يستثن منهم أحدا دليل على كمال طاعتهم لربهم و انقيادهم لأمره كما قال تعالى: (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحریم: 6)
- * و لما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه ذكر قوتهم على ذلك و سرعة سيرهم

بأن جعلهم (أُولَى الْأَجْنَحَةِ) تطير بها فتسرع بتنفيذ ما أمرت به

(مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ) منهم من له جناحان و ثلاثة و أربعة بحسب ما اقتضته حكمته و مِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَ لَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ

* البخاري 3232 - عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِي قَالَ: سَأَلْتُ زَيْدَ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} النجم: 10 قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ وَ لِهَذَا قَالَ: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ) الْأَجْنَحَةِ وَ خَلْقِهِمْ-

يزيد بعض مخلوقاته على بعض في:-

صفة خلقها و في القوة و الحسن و زيادة الأعضاء المعهودة و حسن الأصوات و لذة النغمات

(مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه و لا يستعصى عليها شيء و من ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض 1

*ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير و العطاء و المنع فقال:-

(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ) رزق و مطر و صحة و علم و غير ذلك من النعم

(فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) فلا أحد يقدر أن يمسك هذه الرحمة

(وَمَا يُمْسِكُ) منها (فَلَا مُمْسِكَ لَهُ) لا أحد يستطيع أن يرسلها (مِنْ بَعْدِهِ) سبحانه و تعالى

فهذا يوجب التعلق بالله تعالى و الافتقار إليه من جميع الوجوه و أن لا يدعى إلا هو و لا يخاف و يرجى إلا هو

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) الذى قهر الأشياء كلها

(الْحَكِيمُ) الذى يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَ مَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَ لَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ.

*مسلم (593) عَنْ وَرَادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَتَبَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَ سَلَّمَ قَالَ:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيََتِ وَ لَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَ لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»

* وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يُونُس: 107] 2

(يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم

و هذا شامل لذكرها :-

1- بالقلب اعترافا

و باللسان ثناء

و بالجوارح انقيادا

*فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره ثم نبههم على أصول النعم و هى الخلق و الرزق فقال:-

(هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ) بالمطر (وَالْأَرْضِ) بالماء و المعادن و غير ذلك

و لما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق و يرزق إلا الله نتج من ذلك:-

أن كان ذلك دليلا على ألوهيته و عبوديته

و لهذا قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذِنُ تُؤْفَكُونَ) تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق

*فَكَيْفَ تُؤْفَكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَ وُضُوحِ هَذَا الْبَرْهَانِ وَ أَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَ الْأَوْثَانَ 3

وَلَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ④ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا
إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧
وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ⑨
مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ
وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ⑩
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ
وَمَا يُعَمَّرُ مِمَّنْ مَّعْمَرٌ وَلَا يَنْقُصُ مِّنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ⑪

(وَلَا يَكْذِبُوكَ) يا أيها الرسول فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين

(فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ) فأهلك المكذبون و نجى الله الرسل و أتباعهم

(وَالِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ) وَ سَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ 4

(يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ) بالبعث و الجزاء على الأعمال

(حَقًّا) لا شك فيه و لا مرية و لا تردد

○ قد دلت على ذلك الأدلة السمعية و البراهين العقلية فإذا كان وعده حقاً فـ:

تهيئوا له و بادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة و لا يقطعكم عن ذلك قاطع

(فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) بلذاتها و شهواتها و مطالبها النفسية فتلهيكم عما خلقتم له

(وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) هو الشيطان 5

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ) الذى هو عدوكم في الحقيقة

(فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) لتكن منكم عداوته على بال و لا تهملوا محاربته كل وقت

التحذير من الدنيا و الشيطان 5-8

فإنه يراكم و أنتم لا ترونه و هو دائما لكم بالمرصاد.

(إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

هذا غايته و مقصوده ممن تبعه أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

*إِنَّمَا يَقْصِدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ.
فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ أَنْ يَجْعَلَ أَعْدَاءَ الشَّيْطَانِ وَ أَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَ كِتَابِهِ وَ الْإِقْتِفَاءَ بِطَرِيقِ رَسُولِهِ إِنَّهُ عَلَى
مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَ بِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

وَ هَذِهِ كَقَوْلِهِ: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الْكَهْف: 50] 6

*ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان و عدمها إلى قسمين:— و ذكر جزاء كل منهما

أولاً:— فقال: (الَّذِينَ كَفَرُوا) أى جحدوا ما جاءت به الرسل و دلت عليه الكتب

(هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) فى نار جهنم شديد فى ذاته و وصفه و أنهم خالدون فيها أبداً.

ثانياً:— (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا) بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به

(وَعَمِلُوا) بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم الأعمال

(الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) لذنوبهم يزول بها عنهم الشر و المكروه

(وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) يحصل به المطلوب 7

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ) حسن له الشيطان أعماله السيئة من معاصى الله و الكفر و عبادة ما دونه من الآلهة والأوثان

(فَرَّاهُ حَسَنًا)

جميلاً كمن هداه الله تعالى إلى الصراط المستقيم و الدين القويم

فراى الحسن حسناً و السيئ سيئاً فهل يستوى هذا و هذا؟ أَلَكَ فِيهِ حِيلَةٌ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ

فالأول:— عمل السيئ و رأى الحق باطلاً و الباطل حقاً.

و الثانى:— عمل الحسن و رأى الحق حقاً و الباطل باطلاً و لكن الهداية و الإضلال بيد الله تعالى

(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذَبَ) لا تهلك (نَفْسُكَ) بالتحسر (عَلَيْهِمْ)

على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم و صدهم الشيطان عن الحق لكفرهم

(حَسَرَتِ) لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَ يَهْدِي مَنْ يَهْدِي

لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَ الْعِلْمِ التَّامِّ

*فليس عليك إلا البلاغ و ليس عليك من هداهم شيء

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) الله هو الذي يجازيهم بأعمالهم 8

(وَاللَّهُ الَّذِي) يخبر تعالى عن كمال اقتداره و سعة جوده

و أنه (أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبِيرٌ سَحَابًا) تزعجه و تحركه بشدة فيجتمع و يسير.

(فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) جذب فأنزله الله عليها

(فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) يُبْسِهَا فتخضر بالنبات

فحييت البلاد و العباد و ارتزقت الحيوانات و رتعت في تلك الخيرات

*كثيراً مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِأَحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا - كَمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ -
يُبْنِي عِبَادَهُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا

فَإِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهَا السَّحَابُ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَ أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا {اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: 5]

لهذا قال (كَذَلِكَ) الذي أحيا الأرض بعد موتها- كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْثَهَا وَ نَشُورَهَا
أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعْمُ الْأَرْضَ جَمِيعًا فَتَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ
وَ لِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: -

*البخاري:-4935- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟

قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ:- أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ
لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَ هُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ وَ مِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(النَّشُورُ)

ينشر الله الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلى فيسوق إليهم مطرا كما ساقه إلى الأرض الميتة
فينزله عليهم فتحيا الأجساد و الأرواح من القبور و يأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم و يفصل بحكمه

العدل 9

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) يا من يريد العزة اطلبها ممن هي بيده

(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فإن العزة بيد الله و لا تنال إلا بطاعته

و قد ذكرها بقوله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

من قراءة و تسبيح و تحميد و تهليل و كل كلام حسن طيب فيرفع إلى الله و يعرض عليه و يشري الله على
صاحبه بين الملاء الأعلى

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ) من أعمال القلوب و أعمال الجوارح

(يَرْفَعُهُ) الله تعالى إليه أيضا كالكلم الطيب- و قيل: و العمل الصالح يرفع الكلم الطيب
فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب
فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله تعالى
فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى و يرفع الله صاحبها و يعزه.

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ) يعملون و يكسبون
-يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُؤْهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَ هُمْ بُغْضَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ
{وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 142] .

(السَّيِّئَاتِ)

يريد صاحبها الرفعة بها و يمكر و يكيد و يعود ذلك عليه و لا يزداد إلا إهانة و نزولا -هم المراءون بِأَعْمَالِهِمْ
(لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) يهانون فيه غاية الإهانة.

(وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ) يهلك و يضمحل و لا يفيدهم شيئا لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.
*يَفْسَدُ وَ يَبْطُلُ وَ يَظْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأُولَى الْبَصَائِرِ وَ التُّهَى فَإِنَّهُ مَا أَسْرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ عَلَى
صَفَحَاتٍ وَجْهَهُ وَ فَلَاتَاتِ لِسَانَهُ
*وَ مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ رَدَاءَهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.
*فَالْمُرَائِي لَا يَرُوجُ أَمْرُهُ وَ يَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَى غَيْبٍ
*أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَقَرِّسُونَ فَلَا يَرُوجُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَلْ يُكْشَفُ لَهُمْ عَنْ قَرِيبٍ وَ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ
خَافِيَةٌ 10

من مظاهر القدرة الالهية 11-13

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) من ماء الرجل و ماء المرأة و ذلك كل ذرية آدم
يذكر تعالى خلقه الآدمي و تنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة و ما بعدها.
(ثُمَّ جَعَلَكُمْ) أى: لم يزل ينقلكم طورا بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم

(أَزْوَاجًا) ذكر-را يتزوج أنثى

و يراد بالزواج -الذرية و الأولاد

فهو و إن كان النكاح من الأسباب فيه فإنه مقترن بقضاء الله و قدره و علمه

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى) من جنين

(وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) بإذنه.

*و كذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه و قضائه.

*بَلْ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59] .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [الرَّغْد: 8-9]

(وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ) عمر الذي كان معمرا عمرا طويلا
*مَا يُعْطَى بَعْضُ النَّطْفِ مِنَ الْعُمُرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ

{وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ}

الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ لَا عَلَى الْعَيْنِ لِأَنَّ الْعَيْنَ الطَّوِيلَ لِلْعُمُرِ فِي الْكِتَابِ وَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ وَ إِنَّمَا عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: "عِنْدِي ثَوْبٌ وَ نِصْفُهُ" أَيْ: وَ نِصْفٌ آخَرُ.

*البخارى 2067 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبَسِّطَ (يوسع) لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ (يؤخر) لَهُ فِي أَثَرِهِ (بقية عمره) فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ (فليبر بأقاربه)

بر الوالدين والأعمال الصالحة من أعظم القربات و البر من أسباب طول العمر و البركة في العمر

كما في الحديث: (لا يزيد في العمر إلا البر). فالبر من أسباب طول العمر وبركته

و بر الوالدين من أعظم صلة الرحم أعظم صلة الرحم

فبر الوالدين و صلة الرحم من أسباب طول العمر و البركة في العمر.

(إِلَّا) بعلمه تعالى-أو ما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه

لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر ك:- الزنا و عقوق الوالدين و قطيعة الأرحام

و نحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

و المعنى:- أن طول العمر و قصره بسبب و بغير سبب كله بعلمه تعالى

و قد أثبت ذلك (في كِتَابٍ) حوى ما يجرى على العبد في جميع أوقاته و أيام حياته.

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة و إحاطة كتابه فيها

*فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث و النشور كلها عقلية

نبه الله عليها في هذه الآيات:-

1- إحياء الأرض بعد موتها و أن الذي أحيها سيحيي الموتى و تنقل الآدمى فى تلك الأطوار.

فالذى أوجده و نقله طبقا بعد طبق و حالا بعد حال حتى بلغ ما قدر له فهو على إعادته و إنشائه النشأة

الأخرى أقدر و هو أهون عليه

2- و إحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوى و السفلى دقيقتها و جليلها الذى فى القلوب و الأجنة التى

فى البطون و زيادة الأعمار و نقصها و إثبات ذلك كله فى كتاب.

فالذى كان هذا نعته يسيرا عليه فإعادته للأموات أيسر و أيسر.

فتبارك من كثر خيره و نبه عباده على ما فيه صلاحهم فى معاشهم و معادهم **11**

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ لِّتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾
إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمِنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) شديد العذوبة (سَائِغٌ شَرَابُهُ) سهلٌ مروره في الحلق يزيل العطش
(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) شديد الملوحة

* هذا إخبار عن قدرته و حكمته و رحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم

و أنه لم يسو بينهما لأن المصلحة تقتضي أن: تكون الأنهار عذبة فراتا سائغاً شرابها

لينتفع بها الشاربون و الغارسون و الزارعون

و أن يكون البحر ملحا أجاجاً: -

1- لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات

2- و لأنه ساكن لا يجرى فملوحته تمنعه من التغير و لتكون حيواناته أحسن و ألد

و لهذا قال: (وَمِنْ كُلِّ) من البحر الملح و العذب

(تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) و هو السمك المتيسر صيده في البحر

* كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ [الرَّحْمَنُ: 22 23]

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) من لؤلؤ و مرجان و غيرها مما يوجد في البحر فهذه مصالح عظيمة للعباد.

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ) تمخره و تشقه بحيزومها و هو مقدمها المسنم الذي يشبه جوجو الطير (صدره)

* و من المصالح أيضا و المنافع في البحر: -

أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن و المراكب فتراها تمخر البحر و تشق—ه

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر و من محل إلى محل فتحمل السائرين و أثقالهم و تجارتهم فيحصل بذلك من فضل الله و إحسانه شيء كثير

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) رَبُّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ وَ هُوَ الْبَحْرُ تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ وَ تَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ وَ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَ مِنْ رَحْمَتِهِ **12**

و من ذلك أيضا (يُولِجُ) يدخل (أَلَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ) يدخل (النَّهَارَ فِي أَلَيْلٍ)

*كلما أتى أحدهما ذهب الآخر و يزيد أحدهما و ينقص الآخر و يتساويان فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم و حيواناتهم و أشجارهم و زروعهم.

و كذلك (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ) بضياؤها (وَالْقَمَرَ) بنوره

مما يؤدي للحركة و السكون و انتشار العباد في طلب فضله و ما فيهما من تنضيج الشمار و تجفيف ما يجفف و غير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فقدت للاحق الناس الضرر.

(كُلُّ) من الشمس و القمر

(يَجْرِي) يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا

(لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)

فإذا جاء الأجل و قرب انقضاء الدنيا انقطع سيرهما و تعطل سلطانهما و خسف القمر و كورت الشمس و انتشرت النجوم.

*فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة و ما فيها من العبر الدالة على كماله و إحسانه

(ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

الذى انفرد بخلق هذه المذكورات و تسخيرها هو الرب المألوه المعبود الذى له الملك كله.

(وَالَّذِينَ نَادَعُوا مِنْ دُونِهِ) من الأوثان و الأصنام

(مَا يَمْلِكُونَ) لا قليل و لا كثير من السموات و الأرض شيئا

حتى لا يملكون (من قِطْمِيرٍ) هو اللِّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ (الذى هو أحقر الأشياء)

و هذا من تنصيب النفى و عمومه فكيف يُدْعَوْنَ و هم غير مالكين لشئ من ملك السماوات و الأرض؟ **13**

و مع هذا **(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)** لأنهم ما بين جماد و أموات و ملائكة **[مشغولين بطاعة ربهم]**

حقيقة الاصنام 14

(وَلَوْ سَمِعُوا) على وجه الفرض و التقدير

(مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) لأنهم لا يملكون شيئاً و لا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده

و لهذا قال: **(وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ)** يتبرأون منكم و يقولون: **(سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ)** [سبأ: 41]

* كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ**

النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الْأَحْقَافِ: 65]

و قَالَ: **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِئَالًا}** [مَرْيَمَ: 81 82] .

(وَلَا) لا أحد

(نَبِيِّكَ) بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَ مَالِهَا وَ مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ

(مِثْلُ خَيْرٍ) أصدق من الله العليم الخبير فَإِنَّهُ أَخْبَرُ بِالْوَاقِعِ لَا مَحَالَةَ.

* فاجزم بأن هذا الأمر الذى نبأ به كانه رَأً عين فلا تشك فيه و لا تمتري.

فتضمنت هذه الآيات:-

الأدلة و البراهين الساطعة الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود الذى لا يستحق شيئاً من العبادة سواه

و أن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيد عابده شيئاً **14**

(يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

قدرة الله و غناه و فقر الانسان 15-18

يخاطب تعالى جميع الناس و يخبرهم بحالهم و وصفهم

و أنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه

1-فقراء فى إيجادهم فلولا إيجادهم إياهم لم يوجدوا

2-فقراء فى إعدادهم بالقوى و الأعضاء و الجوارح التى لولا إعدادهم إياهم بها لما استعدوا لأى عمل كان.

3-فقراء فى إمدادهم بالأقوات و الأرزاق و النعم الظاهرة و الباطنة

فلولا فضله و إحسانه و تيسيره الأمور:- لما حصل لهم من الرزق و النعم شئ.

4-فقراء فى صرف النقم عنهم و دفع المكاره و إزالة الكروب و الشدائد

فلولا دفعه عنهم و تفريجه لكرباتهم و إزالته لعسرهم:- لاستمرت عليهم المكاره و الشدائد.

5-فقراء إليه فى تربيتهم بأنواع التربية و أجناس التدبير.

6-فقراء إليه فى تألههم له و حبههم له و تعبدهم و إخلاص العبادة له تعالى

فلو لم يوفقهم لذلك:- لهلكوا و فسدت أرواحهم و قلوبهم و أحوالهم.

7-فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون و عملهم بما يصلحهم

فلولا تعليمه:- لم يتعلموا

و لولا توفيقه:- لم يصلحوا (((فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى و بكل اعتبار)))

سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا

* و لكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه و دنياه و يتضرع له و يسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين و أن يعينه على جميع أموره و يستصحب هذا المعنى في كل وقت فهذا أخرى بالإعانة التامة من ربه و إلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

(وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ) الذي له الغنى التام من جميع الوجوه فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه و لا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق و ذلك لكمال صفاته و كونها كلها صفات كمال و نعوت و جلال.

* **و من غناه تعالى:-** أن أغنى الخلق في الدنيا و الآخرة

(الْحَمِيدُ) في ذاته و أسمائه:- لأنها حسنى

و أوصافه:- لكونها عليا

و أفعاله:- لأنها فضل و إحسان و عدل و حكمة و رحمة

و في أوامره و نواهيه:- فهو الحميد على ما فيه و على ما منه

* و هو الحميد في غناه الغرى في حمده **15**

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

أولا:- يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بغيركم من الناس أطوع لله منكم و يكون في هذا تهديد لهم بالهلاك و الإبادة و أن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ثانيا:- يحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث و النشور و أن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء

و في إعادتكم بعد موتكم خلقا جديدا و لكن لذلك الوقت أجل قدره الله لا يتقدم عنه و لا يتأخر **16**

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) بممتنع و لا معجز له **17**

* و يدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله:-

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله و لا يحمل أحد ذنب أحد.

(وَإِنْ تَدْعُ) نفس **(مُثْقَلَةٌ)** بالخطايا و الذنوب تستغيث

(إِلَى حِمْلِهَا) لتساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بَعْضِهِ

(لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ) لم تجد من يحمل عنها شيئاً

(وَلَوْ كَانَ) الذي سألته (ذَا قُرْبَى) قرابة منها من أب أو أخ و نحوهما.

*فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا يساعد الحميم حميمه و الصديق صديقه بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد و لو على والديه و أقاربه.

(إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) هؤلاء الذين يقبلون النذارة و ينتفعون بها أهل الخشية لله

(بِالْغَيْبِ) الذين يخشونه في حال السر و العلانية و المشهد و المغيب

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) و أهل إقامة الصلاة بحدودها و شروطها و أركانها و واجباتها و خشوعها

لأن الخشية لله تستدعى من العبد:-

1- العمل بما يخشى من تضييعه العقاب

2- و الهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب و الصلاة تدعو إلى الخير و تنهى عن الفحشاء و المنكر.

(وَمَنْ تَزَكَّى) تطهر من الشرك و غيره من المعاصي

(فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى) يظهر (لِنَفْسِهِ) (

*من زكى نفسه بالتنقى من العيوب:-

كالرياء و الكبر و الكذب و الغش و المكر و الخداع و النفاق و نحو ذلك من الأخلاق الرذيلة

و تحلى بالأخلاق الجميلة من:- الصدق و الإخلاص و التواضع و لين الجانب و النصح للعباد

و سلامة الصدر من:- الحقد و الحسد و غيرهما من مساوئ الأخلاق

*فإن تزكيتة يعود نفعها إليه و يصل مقصودها إليه ليس يضيع من عمله شيء.

(وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ) (

فيجازي الخلائق على ما أسلفوه و يحاسبهم على ما قدموه و عملوه و لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها 18

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾
وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ
﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله و فيما أودعه في فطر عباده.

ضرب الامثال 19-22

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى) فاقد البصر

(وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) الريح الحارة 21

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى
فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوى المتضادات المعنوية أولى و أولى.

* قَالَ الْمُؤْمِنُ:-

سَمِعْتُ بَصِيرٌ فِي نُورٍ يَمْشِي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّاتِ ذَاتِ
الظَّلَالِ وَالْعُيُونِ

* وَالْكَافِرُ:-

أَعْمَى أَصَمٌ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي لَا خُرُوجَ لَهُ مِنْهَا بَلْ هُوَ يَتِيهٌ فِي غِيهِ وَ ضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ
حَتَّى يُفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحَرُورِ وَ السَّمُومِ وَ الْحَمِيمِ {وَضَلَّ مِنَ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [الْوَاقِعَةُ: 43 44]

* فبين هذه الأشياء من التفاوت و الفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى فإذا علمت المراتب و ميزت الأشياء
و بان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به و أحقها بالإيثار.

* قَوْلُهُ (أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) الْأَنْعَامُ: 122

*وَقَالَ تَعَالَى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [هُود: 24]

(إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ) سماع فهم و قبول لأنه تعالى هو الهادى الموفق

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

أموات القلوب أو كما أن دعائك لا يفيد سكان القبور شيئاً كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً

و لكن وظيفتك النذارة و إبلاغ ما أرسلت به قبل منك أم لا 22

و لهذا قال :- (إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) مجرد إرسالنا إياك

(بِالْحَقِّ) لأن الله تعالى بعثك على حيين :-

حقيقة النبي ﷺ و تكذيب الكفار 23-26

1- فترة من الرسل

2- و طموس من السبل

3- و اندراس من العلم

4- و ضرورة عظيمة إلى بعثك

فبعثك الله رحمة للعالمين و كذلك ما بعثناك به من الدين القويم و الصراط المستقيم حق لا باطل

و كذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم و ما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق و صدق

(بَشِيرًا) لمن أطاعك بثواب الله العاجل و الآجل

(وَنَذِيرًا) لمن عصاك بعقاب الله العاجل و الآجل و لست ببدع من الرسل

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ) من الأمم الماضية و القرون الخالية

(إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) يقيم عليهم حجة الله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

كقوله {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: 7]

و كقوله {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

الضلالة} [النحل: 136] 24

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ) و إن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون فلست أول رسول كذب

(فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) الدالات على الحق و على صدقهم فيما أخبروهم به

(وَبِالْزُّبُرِ) الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام

(وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) المضيء في أخباره الصادقة و أحكامه العادلة

فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن :-

1-اشتبهاه

2-أو قصور بما جاءتهم به الرسل

بل : بسبب ظلمهم و عنادهم 25

(ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بأنواع العقوبات

(فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٍ) فانظر كيف كان إنكارى لعملهم و حلول عقوبتى بهم؟

*كان أشد النكير و أعظم التنكيل فإياكم و تكذيب هذا الرسول الكريم فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب

الآليم و الخزى الوخيم 26

(أَلَمْ تَرَ) يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحد و مادتها واحدة و فيها من التفاوت و الفرق

ما هو مشاهد معروف ليدل العباد على كمال قدرته و بديع حكمته.

تنوع الخلق و وحدة الخالق 27-28

*فمن ذلك:- (أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَبًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ وَ هُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) يُخْرِجُ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ أَصْفَرٍ وَ أَحْمَرَ وَ أَخْضَرَ وَ أَبْيَضَ

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الثَّمَارِ كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَ طَعُومِهَا وَ رَوَائِحِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى {وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زُرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ

وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرَّغَد: 4] 31

(وَمِنْ) ذلك: (أَلْجِبَالِ)

التي جعلها الله أوتادا للأرض تجدها جبالا مشتبكة بل جبلا واحدا و فيها ألوان متعددة فيها

(جُدُدٌ) طرائق - وَ هِيَ: الْجُدَدُ جَمْعُ جُدَّة - (ليس المراد جدد بمعنى جمع جديدة أى حديثة)

(بَيْضٌ) و فيها صفر

(مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا) مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ أَيْضًا.

و فيها (وَعَرَايِبُ سُودٌ) أى: شديدة السواد جدا

النظرة العلمية: ليس الاعجاز العلمى فى هذه الآية هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى

اختلاف المواد التى تكون صخورها من حديد يجعل لونها السائد أحمر

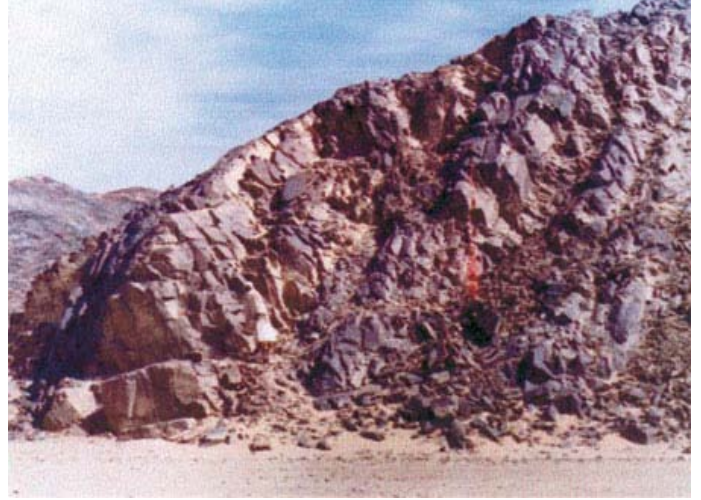
أو منجنيز و فحم يجعله أسود

أو نحاس يجعله أصفر

و غير ذلك حجارة كلسية تعكس اللون الأبيض

*و لكن الاعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الالوان يروى شجرها ماء واحد و خلق جبال حمر و بيض و سود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصلها من باطن الارض و يسميها علماء الجيولوجيا **بالصهارة** و هذه الصهارة عندما تنبثق في أماكن مختلفة من الارض و على أعماق مختلفة من السطح يعتري تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الامر في كتل أو جبال مختلفات المادة واللون و هكذا فسنة الله واحدة لان الاصل واحد والفروع مختلفة و متباينة و في هذا متاع و فائدة لبنى آدم.

صورة تبين الألوان المتعددة
في الجبل الواحد جبل
خشب بجنوب الصحراء
الشرقية المصرية و القواطع
السوداء التى تخترقه



*و الجدد شكل من أشكال الصخور النارية و هذه الجدد لها ألوان متعددة فنرى منها الأبيض و الأحمر المتعدد الدرجات و الأسود كما هو واضح بالشكل لجبل خشب بجنوب الصحراء الشرقية المصرية حيث اللون الأحمر الفاتح والرمادى والبني في الجبل و القواطع السوداء التى تخترقه و كل هذه الألوان المختلفة تعكس الألوان الأساسية للمعادن الرئيسية المكونة لصخور القشرة الأرضية و التى تعكس بدورها التركيب الكيميائى لهذه المعادن

هذه لفئة كونية عجيبة إلى ألوان الجبال و الصخور و تنوعها داخل اللون الواحد من (بيض مختلفة البياض و حمر مختلفة في حمرتها و سود شديدة السواد) تهز القلب هزا و توقظ فيه حاسة الذوق الجمالى العالى بما يستحق النظر و الالتفات في هذا الكتاب الكونى الجميل الصفحات العجيب في التكوين و التلوين فسبحان القادر على كل شئ **27**

(وَمِنْ) ذلك: (النَّاسِ)

فيها من اختلاف الألوان و الأوصاف و الأصوات و الهيئات ما هو مريح بالأبصار مشهود للنظار و الكل من أصل واحد و مادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقل على مشيئة الله تعالى التى خصصت ما خصصت منها بلونه و وصفه و قدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك و حكمته و رحمته حيث كان ذلك الاختلاف

*قَالَ النَّاسُ مِنْهُمْ بَرَبْرٌ وَ حُبُوشٌ وَ طُمَاطِمٌ فِي غَايَةِ السَّوَادِ وَ صَقَالِبَةٌ وَ رُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَ الْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ وَ الْهُنُودُ دُونَ ذَلِكَ

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: {وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} [الرُّوم: 22]

(وَالذَّوَابُ) وَهُوَ: كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى قَوَائِمَ

(وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ)

مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ. كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا
* وَ كَذَلِكَ الذَّوَابُ وَ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةٌ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ بَلِ النَّوعِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مُخْتَلِفٌ الْأَلْوَانِ
بَلِ الْحَيَوَانِ الْوَاحِدِ يَكُونُ أَبْلَقَ فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَ هَذَا اللَّوْنِ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.
* وَ ذَلِكَ التَّفَاوُتُ فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَ الْمَنَافِعِ وَ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ وَ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا هُوَ مَعْلُومٌ.

* وَ ذَلِكَ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَ أَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ
وَ لَكِنِ الْغَافِلُ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَ غَيْرِهَا نَظَرَ غَفْلَةٍ لَا تَحْدُثُ لَهُ التَّذَكُّرُ
وَ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى وَ يَعْلَمُ بِفِكْرِهِ الصَّائِبِ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِيهَا. وَ لِهَذَا قَالَ:—

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(الله :مفعول به مقدم منصوب بالفتحة وقع عليه فعل الفاعل-العلماء:فاعل مؤخر مرفوع بالضمه)
فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْلَمَ كَانَ أَكْثَرَ لَهُ خَشْيَةً وَ أُوجِبَتْ لَهُ خَشْيَةُ اللَّهِ الْإِنْكَفَافُ عَنِ الْمَعَاصِي وَ الْإِسْتِعْدَادُ لِلْقَاءِ
مَنْ يَخْشَاهُ

وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى خَشْيَةِ اللَّهِ وَ أَهْلِ خَشْيَتِهِ هُمْ أَهْلُ كِرَامَتِهِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) كَامِلُ الْعِزَّةِ وَ مِنْ عِزَّتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَضَادَّاتِ.

(غَفُورٌ) لِدُنُوبِ التَّائِبِينَ 28

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) أى: يتبعونه:—

فِي أَوَامِرِهِ:— فيمتثلونها

وَ فِي نَوَاهِيهِ:— فيتركونها

وَ فِي أَحْبَارِهِ:— فيصدقونها و يعتقدونها و لا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال

وَ يَتْلُونَ أَيْضًا أَلْفَاظَهُ:— بدراسته

وَ مَعَانِيَهُ:— بتبعهـا و استخراجهـا

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

ثُمَّ خَصَّ مِنَ التَّلَاوَةِ بَعْدَ مَا عَمَّ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ:—

1-عماد الدين

2-و نور المسلمين

3-و **مِيزَانِ الْإِيمَانِ**4-و **عَلَامَةِ صَدَقِ الْإِسْلَامِ****(وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)**

و النفقة على الأقارب و المساكين و اليتامى و غيره ممن الزكاة و الكفارات و النذور و الصدقات.

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً) فى جميع الأوقات.**(يَرْجُونَ)** بذلك**(بِحَرَةٍ لَّنْ تَكْبُورَ)** تكسد و تفسد بل تجارة هى أجل التجارات و أعلاها و أفضلهاألا و **هى** رضا ربهم و الفوز بجزيل ثوابه و النجاة من سخطه و عقابه **29**

و هذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم و أنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة و النيات الفاسدة شيئا.

◀ التجارة مع اللهكُنْتُ دَائِمًا إِذَا هَمَمْتُ بِمَعْصِيَةٍ أَوْ غِيْبَةٍ لِأَحَدٍ أَتَذَكَّرُ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ^(٢)؛ فَأُحْجِمُ عَنْ ذَلِكَ. ق: ١٨.

وكان سبب محافظتي على العبادات الثلاث: قراءة القرآن الكريم، والصلاة، والإنفاق؛ هي قول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَةً لَّنْ تَكْبُورَ
لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ^(١)

فاطر: ٢٩-٣٠

فما أجل أن نعمل بالعمل موقنين أننا سنأخذ عليه أجرنا من الله وزيادة؛ لأنه تعالى شكورٌ يقبل القليل من الصالحات، ويجزي عليها الكثير الحسنات.

و ذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال:-

(لِيُؤْفِقَهُم) الله تعالى ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص**(أَجْرَهُمْ)** أجور أعمالهم على حسب قلتها و كثرتها و حسنها و عدمه**(وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ)** يضاعف لهم الحسنات من فضله**(إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)** غفر لهم السيئات و قبل منهم القليل من الحسنات **30**

.....

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾
 ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا لَمَّا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
 وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا لَبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ
 إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ
 وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا
 وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
 رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ
 وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله

(هُوَ الْحَقُّ) من كثرة ما اشتمل عليه من الحق كأن الحق منحصر فيه فلا يكن فى قلوبكم حرج منه و لا تتبرموا
 منه و لا تستهينوا به

فإذا كان هو الحق:-

لـزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية و الغيبية و غيرها مطابق لما فى الواقع فلا يجوز أن يراد به
 ما يخالف ظاهره و ما دل عليه

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) من الكتب و الرسل لأنها أخبرت به

* فلما وجد و ظهر ظهر به صدقها. فهى بشرت به و أخبرت و هو صدقها

* و لهذا لا يمكن أحدا أن يؤمن بالكتب السابقة و هو كافر بالقرآن أبدا لأن كفره به ينقض إيمانه بها
 لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن و لأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

(إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

فيعطى كل أمة و كل شخص ما هو اللائق بحاله.

و من ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها و زمانها

و لهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ فجاء بهذا الشرع

الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة و يتكفل بما هو الخير في كل وقت **31**

○ و لهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولا و أحسنهم أفكارا و أرقهم قلوبا و أزكاهم أنفسا اصطفاهم الله

تعالى و اصطفى لهم دين الإسلام و أورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب

و لهذا قال: (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا**) أعطينا -بعد هلاك الأمم-

(**الْكِتَابَ**) القرآن

(**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) من اخترناهم من أمة محمد ﷺ و هم هذه الأمة.

(**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**) بالمعاصى التى هى دون الكفر.

*المُفْرَطُ فِي فِعْلٍ بَعْضُ الْوَاجِبَاتِ الْمُتَرَكِّبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ

*أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَوْجٍ وَ تَقْصِيرٍ.

(**وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**)

مقتصر على ما يجب عليه تارك للمحرم-و قد يترك بَعْضُ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَ يَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ

(**وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**) سارع فيها و اجتهد فسبق غيره

و هو المؤدى للفرائض المكثرة من النوافل التارك للمحرم و المكروه.

*وَهُوَ: الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَ الْمُسْتَحَبَّاتِ التَّارِكُ لِلْمَحَرَّمَاتِ وَ الْمَكْرُوهَاتِ وَ بَعْضُ الْمُبَاحَاتِ.

الواجبات	المستحبات	المباحات	المحرمات	المكروهات
سابق للخيرات	فاعل	مكثر	تارك لبعضها	تارك
مقتصد	فاعل	تارك لبعضها	تارك	فاعل لبعضها
ظالم لنفسه	مفرط	مفرط	فاعل لبعضها	فاعل لبعضها

*فكلهم اصطفاه الله تعالى لورثة هذا الكتاب و إن تفاوتت مراتبهم و تميزت أحوالهم فلكل منهم قسط

من وراثته حتى الظالم لنفسه

فإن ما معه من أصل الإيمان و علوم الإيمان و أعمال الإيمان من وراثة الكتاب

لأن المراد بوراثته الكتاب وراثة علمه و عمله و دراسة ألفاظه و استخراج معانيه.

و قوله (**بِإِذْنِ اللَّهِ**)

راجع إلى السابق إلى الخيرات لئلا يغتر بعمله بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى و معونته

فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

(**ذَلِكَ**) أى وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده

(هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

الذى جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم فأجل النعم على الإطلاق و أكبر الفضل وراثته هذا الكتاب **32**
ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال:-

(**جَنَّتٌ**) مشتملات على الأشجار و الظل و الظليل و الحقائق الحسنة و الأنهار المتدفقة و القصور العالية
و المنازل المزخرفة فى أبد لا يزول و عيش لا ينفد.

و الـ(**عَدْنٍ**):- "إقامة" أضافها للإقامة لأن الإقامة و الخلود وصفها و وصف أهلها.

(يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ)

و هو الحلى الذى يجعل فى اليدين على ما يحبون و يرون أنه أحسن من غيره الرجال و النساء فى الحلية
فى الجنة سواء

(و) يحلون فيها (**وَلَوْثُ**) ينظم فى ثيابهم و أجسادهم.

*مسلم (250) عَنْ أَبِي حَازِمٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه وَهُوَ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ
فَكَانَ يَمُدُّ يَدَهُ حَتَّى تَبْلُغَ إِبْطَهُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا هَذَا الْوُضُوءُ؟
فَقَالَ: يَا بَنِي فَرُوحَ أَنْتُمْ هَاهُنَا؟ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ هَاهُنَا مَا تَوَضَّأْتُ هَذَا الْوُضُوءَ
سَمِعْتُ خَلِيلِي رضي الله عنه يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»

(**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**) من سندس و من إستبرق أخضر.

* وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَأَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
*البخارى 5832 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ شُعْبَةُ:- فَقُلْتُ: أَعَنِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم؟

فَقَالَ شَدِيدًا: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَلَنْ يَلْبَسَهُ فِي الْآخِرَةِ» **33**

* (و) لما تم نعيمهم و كملت لذتهم

(**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ**)

و هذا يشمل كل حزن فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص فى:-

1-جمالهم

2-و لا فى طعامهم و شرابهم

3-و لا فى لذاتهم و لا فى أجسادهم

4-و لا فى دوام لبثهم فهم فى نعيم ما يرون عليه مزيدا و هو فى تزايد أبد الآباد.

* وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْمَحْذُورِ أَزَاحَهُ عَنَّا وَ أَرَاَحَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَ نَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

(**إِنَّا رَبَّنَا غُفُورٌ**) حيث غفر لنا الزلات

(شكور) حيث قبل منا الحسنات و ضاعفها و أعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا و لا أمانينا

فبمغفرته نجوا من كل مكروه و مرهوب و بشكره و فضله حصل لهم كل مرغوب محبوب 34

(الَّذِي أَحَلَّنَا) أنزلنا نزول حلول و استقرار لا نزول معبر و اعتبار.

(دَارَ الْمُقَامَةِ) الدار التي تدوم فيها الإقامة و الدار التي يرغب في المقام فيها —: -

كثرة خيراتها و توالى مسراتها و زوال كدوراتها

و ذلك الإحلال (من فضله) علينا و كرمه لا بأعمالنا فلولا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

*لَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا تُسَاوِي ذَلِكَ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ

*البخارى 5673 عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَ لَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: - لَا وَ لَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَ رَحْمَةٍ فَسَدُّوْا وَ قَارِبُوا وَ لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ: -

إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا وَ إِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ "

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) لا تعب فى الأبدان و لا فى القلب و القوى لا فى كثرة التمتع

(وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) اعياء

* و هذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم فى نشأة كاملة و يهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما

يكونون بهذه الصفة بحيث لا يمسه نصب و لا لغوب و لا هم و لا حزن

و يدل على أنهم لا ينامون فى الجنة: -

1-لأن النوم فائدته زوال التعب و حصول الراحة به و أهل الجنة بخلاف ذلك

2-و لأنه موت أصغر و أهل الجنة لا يموتون جعلنا الله منهم بمنه و كرمه.

*و النصب و اللُغوب: -كُلٌّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ وَ كَانَ الْمُرَادَ يَنْفِي هَذَا

وَ هَذَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ وَ لَا أَرْوَاحِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْثُبُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ فِي الدُّنْيَا

فَسَقَطَ عَنْهُمْ التَّكْلِيفُ بِدُخُولِهَا وَ صَارُوا فِي رَاحَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: -{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الْحَاقَّة: 24] 35

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة و نعيمهم ذكر حال أهل النار و عذابهم فقال: -

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا) جحدوا ما جاءتهم به رسلكم من الآيات و أنكروا لقاء ربهم.

(لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ) يعذبون فيها أشد العذاب و أبلغ العقاب.

حال الكفار فى جهنم و مناقشتهم فى عقائدهم 31-43

(لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ) بالموت

(فَيَمُوتُوا) فيستريحوا

كَمَا قَالَ تَعَالَى: { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا } [طه: 74]

-مسلم (185) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَ لَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ
قَالَ: أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ

قال الله تعالى: {وَنَادُوا يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ} [الزخرف: 77].

فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرَوْنَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ وَ لَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
{ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا }

لَقَوْلِهِ { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } [الزخرف: 74 75]

وَ قَالَ { كَلَّمَا خَبَثَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } [الإشراء: 97] { فَذُوقُوا فَلَآنَ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا } [التبأ: 30].

(وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) فشدة العذاب و عظمه مستمر عليهم فى جميع الآتات و اللحظات.

(كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ) هذا جزاء كل من كفر بربه و كذب بالحق 36

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) يصرخون و يتصايحون و يستغيثون و يقولون: -

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

فاعترفوا بذنبهم و عرفوا أن الله عدل فيهم و لكن سألوا الرجعة فى غير وقتها
* وَ قَدْ عَلِمَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّاهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.
فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ:{ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا } [غافر: 11 12]
أَي: لَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ وَ لَوْ رُدِدْتُمْ لَعُدْتُمْ إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ

فيقال لهم: (أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ) دهرًا و عمرا

(مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ) يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل متعناكم فى الدنيا

و أدرنا عليكم الأرزاق و قيسنا لكم أسباب الراحة و مددنا لكم فى العمر و تابعنا عليكم الآيات
و أوصلنا إليكم النذر و ابتليناكم بالسراء و الضراء لتنبهوا إلينا و ترجعوا إلينا* فلم ينجع فيكم إنذار و لم تفد فيكم موعظة و أخرنا عنكم العقوبة حتى إذا انقضت آجالكم و تمت أعماركم
و رحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات و وصلتكم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال سألتكم الرجعة؟* هيهات هيهات فات وقت الإمكان و غضب عليكم الرحيم الرحمن و اشتد عليكم عذاب النار و نسيكم أهل
الجنة فامكنوا فيها خالدين مخلدين و فى العذاب مهانين* البخارى 6419- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي آخَرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً* الترمذى: 3550- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَ أَقْلُهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ

*البخارى 4466 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوْفِيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَ سِتِّينَ»

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) وَ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْرِى بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَ قَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى} [النجم: 56]
وَ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عَنْ قَتَادَةَ فِيمَا رَوَاهُ شَيْبَانُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:- اِخْتَجَّ عَلَيْهِم بِالْعُمَرِ وَ الرَّسُلِ.
وَ هَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ وَ هُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

{وَنَادُوا يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ بِأَلْحِقَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف: 77 78]
أَي: لَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرَّسُلِ فَأَبَيْتُمْ وَ خَالَفْتُمْ وَ قَالَ تَعَالَى:
{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإشراء: 15]

وَ قَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: {كُلَّمَا أُلْفِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} [الملك: 8 9] .

* و لهذا قال: (فَذَوْقُوا) عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِكُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مَدَّةِ أَعْمَارِكُمْ

(فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) ينصرهم فيخرجهم منها أو يخفف عنهم من عذابها 37

لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين و ذكر أعمال الفريقين قال:-

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ) أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى و اطلاعه على

(غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) التي غابت عن أبصار الخلق و عن علمهم

(إِنَّهُ، عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) عالم بالسرائر و ما تنطوى عليه الصدور من الخير و الشر و الزكاء و غيره

فيعطى كلا ما يستحقه و ينزل كل أحد منزلته 38

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ لَهَٰكُ. كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٣﴾ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٤﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن كمال حكمته و رحمته بعباده (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ)

أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضا في الأرض و يرسل لكل أمة من الأمم النذر فينظر كيف يعملون كما قال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} [التَّوْبَةُ: 62]

(مَنْ كَفَرَ) جحد وحدانية الله و بما جاءت به رسله

(فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) فعلى نفسه ضرره و كفره و إثمه و عقوبته و لا يحمل عنه أحد-

(وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا) بغضا... و أى عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟!

*كُلَّمَا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ أَبْغَضُهُمُ اللَّهُ وَ كَلَّمَا اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَ حَسُنَ عَمَلُهُ:-

ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ وَ زَادَ أَجْرُهُ وَ أَحَبَّهُ خَالِقُهُ وَ بَارَتْهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَسُبْحَانَ الْمُقَدَّرِ الْمُدَبِّرِ

(وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) هلاكاً في الآخرة

أى: يخسرون:-

1-أنفسهم

2-و أهليهم

3-و أعمالهم

4- و منازلهم في الجنة

فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء و الخسران و الخزي عند الله و عند خلقه و الحرمان يقول تعالى مُعْجِزًا لآلهة المشركين و مبينا نقصها و بطلان شركهم من جميع الوجوه **39** (قُلْ) يا أيها الرسول لهم:

(أَرَأَيْتُمْ) أخبروني عن (شُرَكَاءَكُم) من الأصنام و الأنداد

(الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) هل هم مستحقون للدعاء و العبادة

ف— (مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

هل خلقوا بحرا أم خلقوا جبالا أو خلقوا حيوانا أو خلقوا جمادا؟
سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى

(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ) أم لشركائكم شركة

(فِي السَّمَوَاتِ) في خلقها و تدبيرها؟— لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.

*سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئا و لم يشاركوا الخالق في خلقه فلم عبدتموهم و دعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟
فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم و دل على بطلانها.
*ثم ذكر الدليل السمعي و أنه أيضا منتف فلهذا قال:-

(أَمْ عَائِدَتُهُمْ كِتَابًا) يتكلم بما كانوا به يشركون يأمرهم بالشرك و عبادة الأوثان.

(فَهُمْ) في شركهم

(عَلَى يَدَيْ مَنْنُهُ) من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟

فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن و لا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ
و لو قدر نزول كتاب إليهم و إرسال رسول إليهم و زعموا أنه أمرهم بشركهم فإننا نجزم بكذبهم لأن الله قال:-

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

فالرسل و الكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي و النقاي قد دلا على بطلان الشرك

فما الذي حمل المشركين على الشرك و فيهم ذوو العقول و الذكاء و الفطنة؟

أجاب تعالى بقوله:- **(بَلْ لَّيْنِ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا)** باطل و زور

*أى ذلك الذى مشوا عليه ليس لهم فيه حجة فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به و تزيين بعضهم لبعض و اقتداء المتأخر بالمتقدم الضال و أمانى منّاها الشيطان و زين لهم سوء أعمالهم فنشأت فى قلوبهم و صارت صفة من صفاتها فعسر زوالها و تعسر انفصالها فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر و الشرك الباطل المضمحل⁴⁰

(إِنَّ اللَّهَ) يخبر تعالى عن كمال قدرته و تمام رحمته و سعة حلمه و مغفرته

و أنه تعالى **(يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)** عن الزوال

(أَنْ تَزُولَ) أَنْ تَضْطَرِّبَا عَنْ أَمَاكِئِهِمَا كَمَا قَالَ: **{وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** [الحج: 65]

وَ قَالَ تَعَالَى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرٍ}** [الرؤم: 25]

(وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَ إِبْقَائِهِمَا إِلَّا هُوَ لعجزه عن ذلك

*فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق و لعجزت قدرهم و قواهم عنهما.

و لكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا ليحصل للخلق القرار و النفع و الاعتبار

و ليعلموا من عظيم سلطانه و قوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالا و تعظيما و محبة و تكريما

و ليعلموا كمال حلمه و مغفرته بإمهال المذنبين و عدم معالجتة للعاصين مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم

و لو أذن للأرض لابتلعتهم و لكن وسعتهم مغفرته و حلمه و كرمه

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) يَرَى عِبَادَهُ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَ يَعْصُونَهُ وَ هُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ وَ يَنْظُرُ وَ يُؤَجِّلُ وَ لَا يَعْجَلُ

وَ يَسْتُرُ آخِرِينَ وَ يَغْفِرُ وَ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَنَّهُ:

{الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة: 255] ⁴¹

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ) أقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله **(جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ)** قسما اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة.

(لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ) يخوفهم عقاب الله **(لَيَكُونَنَّ أَهْدَى)** أكثر استقامة واتباعا للحق

(مَنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) اليهود و النصارى أهل الكتب فلم يفوا بتلك الإقسامات و العهود.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ) هُوَ: مُحَمَّدٌ ﷺ - هِمَا أَنْزَلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَ هُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ

*لم يهتدوا و لم يصيروا أهدي من إحدى الأمم بل لم يدوموا على ضلالهم الذى كان

بل **(مَا زَادَهُمْ)** ذلك

(إِلَّا نَفُورًا) و زيادة ضلال و بغى و عناد⁴²

* و ليس إقسامهم المذكور لقصد حسن و طلب للحق و إلا لوفقوا له و لكنه صادر عن

(أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ) على الخلق و على الحق و بهرجة (باطل) فى كلامهم هذا

(وَمَكْرَ السَّيِّئِ) الشرك و المعاصى

* يريدون به المكر و الخداع و أنهم أهل الحق الحريصون على طلبه فيغتر به المغترون و يمشى خلفهم المقتدون.

(وَلَا يَحِيقُ) يحيط

(الْمَكْرُ السَّيِّئِ) الذى مقصوده مقصود سيئ و مآله و ما يرمى إليه سيئ باطل

(إِلَّا بِأَهْلِهِ) فمكرهم إنما يعود عليهم

و قد أبان الله لعباده في هذه المقالات و تلك الإقسامات أنهم كذبة في ذلك مزورون فاستبان خزيهم و ظهرت فضيحتهم و تبين قصدهم السيئ فعاد مكرهم فى نحورهم و رد الله كيدهم فى صدورهم.

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ) فلم يبق لهم

(إِلَّا) انتظار ما يحل بهم من العذاب الذى هو (سُنَّتِ) الله فى

(الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) فلا يبدل العذاب بغيره.

* الذى لا تبدل و لا تغير أن كل من سار في الظلم و العناد و الاستكبار على العباد أن يحل به نقمته و تسلب عنه نعمته فَلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء ما فعل بأولئك- بل هى جارية كذلك في كل مُكَذَّبٍ⁴³

(وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) تحويل العذاب عن مستحقه إلى غير مستحقه {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ} [الرَّغْد: 11] و لَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَ يُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ.

يحض تعالى على السير فى الأرض فى القلوب و الأبدان فقال:-

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) للاعتبار لا لمجرد النظر و الغفلة

(فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

كعاد و ثمود و أمثالهم ممن كذبوا الرسل و ما حلَّ بهم من الدمار و بديارهم من الخراب

(وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) أكثر منهم أموالا و أولادا و أشد قوة و عمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء

فلما جاءهم العذاب لم تنفعهم قوتهم و لم تغن عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئا

اهلاك الكفار بعد امهالهم 44-45

و نفذت فيهم قدرة الله و مشيئته.

(وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ اللَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه و قدرته

(إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا) بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ

(قَدِيرًا) عَلَى مَجْمُوعِهَا 44

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ

وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

36- سورة يس- مكية- بسم الله الرحمن الرحيم

يَسَّ ١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤) تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ٥)

لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧)

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا

وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠)

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١)

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢)

ثم ذكر تعالى كمال حلمه و شدة إمهاله و إنظاره أرباب الجرائم و الذنوب فقال:-

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا) من الذنوب

(مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة.

* قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:- كَادَ الْجَعْلُ أَنْ يُعَذَّبَ فِي جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ ثُمَّ قَرَأَ:-
(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ).

(وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ) يمهلهم الله و لا يهملهم-يُنْظَرُهُمْ

(إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) فيجازيهم بحسب ما علمه منهم من خير و شر 45

تفسير سورة يس- مكية- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَسَّ) قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ "سُورَةِ الْبَقَرَةِ"

القرآن منذر للمشركين و مبشر للمؤمنين 1-12

وَرُوي عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ:- أَنَّ (يَسَّ) مِعْنَى: يَا إِنْسَانُ 1

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وصفه الحكمة:-

1- و هو وضع كل شيء موضعه

2- وضع الأمر و النهى فى الموضع اللائق بهما

3- و وضع الجزاء بالخير والشر في محلهاما اللائق بهما

فأحكامه الشرعية و الجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

4- و من حكمة هذا القرآن أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته

فينبه العقول على المناسبات و الأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها 2

(إِنَّكَ) يا محمد (لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هذا المقسم عليه و هو رسالة محمد ﷺ و إنك من جملة المرسلين فلست ببدع من الرسل

و أيضا فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية

و أيضا فمن تأمل أحوال المرسلين و أوصافهم

و عرف الفرق بينهم و بين غيرهم عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق

الفاضلة.

و لا يخفى ما بين المقسم به وهو القرآن الحكيم و بين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال

و أنه لو لم يكن لرسالته دليل و لا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلا و شاهدا على رسالة محمد ﷺ

بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ 3

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ الدالة على رسالته و هو أنه:-

(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) معتدل موصل إلى الله و إلى دار كرامته

و ذلك الصراط المستقيم مشتمل على:-

1- و هى الأعمال الصالحة:- المصلحة للقلب و البدن و الدنيا و الآخرة

2- و الأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب المنمية للأجر

*فهذا الصراط المستقيم الذي هو وصف الرسول ﷺ ووصف دينه الذي جاء به فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم

كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام على أجل مقسم عليه و خبر الله وحده كاف

و لكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة و البراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه من رسالة

رسوله ما نبهنا عليه و أشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه 4

و هذا الصراط المستقيم (نَزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ) فهو الذي أنزل به كتابه و أنزله طريقا لعباده موصلا لهم إليه

(الْغَزِيرِ) فحماء بعزته عن التغيير و التبديل

(الرَّحِيمِ) رحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته

و لهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: (الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ) كقوله

فهم مغلولون عن كل خير لا يبصرون الحق و لا يهتدون إليه

* وَالْمُقَمَّحُ:- هُوَ الرَّافِعُ رَأْسَهُ كَمَا قَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ فِي كَلَامِهَا:-

وَ أَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ (أَشْرَبُ فَأَرْوَى وَأَرْفَعُ رَأْسِي تَهْنِئَةً وَتَرَوِيًا) [البخاري 5189] 8

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا) حاجزا يحجزهم عن الإيمان و عن الحق

(فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم فلم تفد فيهم النذارة 9

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

كيف يؤمن من طبع على قلبه و رأى الحق باطلا و الباطل حقا؟! 10

و القسم الثـاني:- الذين قبلوا النذارة و قد ذكرهم بقوله:-

(إِنَّمَا تُنْذِرُ) تنفع نذارتك و يتعظ بنصحك

(مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) من قصده اتباع الحق و ما ذكر به (الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)

(وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ)

أى: من اتصف بهـ _____ ذين الأـ _____ رينـ

1- القصـد الحسن في طلب الحق

2- و خشية الله تعالى

* فهم الذين ينتفعون برسالتك و يزكون بتعليمك و هذا الذى وُفِّقَ لهذين الأمرين

(فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ) (لذنوبه

(وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) (لأعماله الصالحة و نيته الحسنة

لنقله {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [المُلْك: 12] 11

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ) نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قِسْوَةِ الْقُلُوبِ:-

{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد: 17] .

(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) من الخير و الشر و هو أعمالهم التى عملوها و باشروها فى حال حياتهم

(وَأَنْذَرَهُمْ)

أَحَدُهُمَا:- نَكْتُبُ آثَارَهُمُ الَّتِي أَثَرُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَتَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ

* و هى آثار الخير و آثار الشر التى كانوا هم السبب فى إيجادها فى حال حياتهم و بعد وفاتهم

و تلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم و أفعالهم و أحوالهم فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد و تعليمه و نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب ينتفع بها في حياته و بعد موته أو عمل خيرا من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره أو عمل مسجدا أو محلا من المحال التي يرتفق بها الناس و ما أشبه ذلك فإنها من آثاره التي تكتب له و كذلك عمل الشر.

*مسلم 1017- قال النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ وَ مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»

* و هذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله و الهداية إلى سبيله بكل وسيلة و طريق موصل إلى ذلك و نزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه و أنه أسفل الخليقة و أشدهم جرما أعظمهم إثما.
* **وَالْقَوْلُ الثَّانِي:** - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آثَارُ خُطَاهُمْ إِلَى الطَّاعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ.

*مسلم (665) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَلَّتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلَمَةَ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ» (معناه الزموا دياركم فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد)

*الصحيح المسند من أسباب النزول: ابن كثير قال الحافظ أبو بكر البزار عن أبي سعيد رضي الله عنه قال إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد فنزلت: {وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}

(وَكُلُّ شَيْءٍ) من الأعمال و النيات و غيرها وَ كَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الأنبياء: 71] أَيْ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمُ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:- {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر: 69]

وَ قَالَ تَعَالَى:- {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49]

(أَحْصَيْتَهُ) مَسْطُورٍ مَضْبُوطٍ

(فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) كتاب هو ((أم الكتب))

و إليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة و هو اللوح المحفوظ 12

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ
إِنِ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى
قَالَ يَرْفَعُ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ
بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
إِنِّي أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ الْبَلَاءُ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾
بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

قصة أصحاب القرية 13-32

(وَأَضْرَبَ لَهُمْ) لهؤلاء المكذبين برسالتك الرادين لدعوتك

(مَثَلًا) يعتبرون به و يكون لهم موعظة إن وفقوا للخير و ذلك المثل :-

(أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ) هي أنطاكية عاصمة بلاد يقال لها العواصم بأرض الروم

و ما جرى منهم من التكذيب لرسل الله و ما جرى عليهم من عقوبته و نكاله.

و تعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة لعينها الله فالتعرض لذلك و ما أشبهه من باب التكلف و التكلم بلا علم

و لهذا إذا تكلم أحد ففى مثل هذا تجد عنده من الخبط و الخلط و الاختلاف الذي لا يستقر له قرار

ما تعرف به:-

أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق و ترك التعرض لما لا فائدة فيه و بذلك تزكو النفس

و يزيد العلم من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها و لا حجة عليها

ولا يحصل منها من الفائدة إلا:-

1-تشويش الذهن

2-و اعتياد الأمور المشكوك فيها.

و الشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين.

(إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

من الله تعالى يأمرهم بـ

1-عبادة الله وحده

2-وإخـلاص الدين له

3-وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا) بِأَدْرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ

(فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) قويناهما بثالث فصاروا ثلاثة رسل اعتناء من الله بهم وإقامة للحجة بتوالى الرسل إليهم

(فَقَالُوا) لهم: (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ) مَنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ نَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ 14

*فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل: -

فـ (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)

فَكَيْفَ أَوْحَى إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ بَشَرٌ وَ نَحْنُ بَشَرٌ فَلِمَ لَا أَوْحَى إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ؟

و ما الذى فضلكم علينا و خصكم من دوننا ؟

وَ لَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً.

قالت الرسل لأممهم: - (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ابراهيم: 11

(وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ) أنكروا عموم الرسالة ثم أنكروا أيضا المخاطبين لهم

فقالوا: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) 15

فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: -

(قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْنَا لِمَا نَحْنُ لَكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

فلو كنا كاذبين لأظهر الله خزينا و لبادرنا بالعقوبة و لَكِنَّهُ سَيَعِزُّنَا وَيَنْصُرُنَا عَلَيْنَا وَ سَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ

عَاقِبَةُ الدَّارِ

كَهَوْلِهِ {قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

[الْعَذَابُ: 52]

(وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

أى:الذى يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها

و ما عدا هذا من آيات الاقتراح و من سرعة العذاب فليس إلينا * و إنما وظيفتنا - التي هي البلاغ المبين -

قمنا بها و بينها لكم فإن اهتديتم:- فهو حظكم و توفيقكم

و إن ضللتهم: فليس لنا من الأمر شيء 17

فـ(قَالُوا) أصحاب القرية لرسلمهم:ـ

(إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ) لم نر على قدومكم علينا و اتصالكم بنا إلا الشر
* و هذا من أعجب العجائب أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد و أجل كرامة يكرمهم
بها و ضرورتهم إليها فوق كل ضرورة قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه و استشأموا بها
و لكن الخذلان و عدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه.

ثم توعدهم فقالوا:ـ(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ) نقتلنكم رجما بالحجارة أشنع القتلات

(وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) 18

فقلت لهم رسلمهم: (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ)

مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ هو ما معهم من الشرك و الشر المقتضى لوقوع المكروه و لنقمة و ارتفاع المحبوب و النعمة
قَهْوِلِهِ فِي قَوْمٍ فِرْعَوْنُ:

{إِذَا جَاءَهُمُ الْحُسْنَىٰ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف: 131]

وَقَالَ قَوْمٌ صَالِحٌ: {أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ [التَّمْلِ: 47]

(أَيْنَ ذِكْرُكُمْ) وُعظمت بما فيه خيركم تشاءتم و توعدهمونا بالرجم و التعذيب؟

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) متجاوزون للحد متجرهمون في قولكم فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفورا و استكبارا 19

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى)

حرصا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل و آمن به و علم ما رد به قومه عليهم

*ذكر ابن الجوزي نقلا عن الوزير ابن هبيرة الحنبلي:ـ

أن السر في تقديم - من أقصى المدينة - في سورة يس: هو أن ذكر الأوصاف قبل ذكر الموصوف أبلغ في المدح
من تقديم ذكره على وصفه فنوه بالرجل المذكور في سورة يس لأنه جمع بين الأمر بالمعروف و النهي عن
المنكر و إظهار إيمانه و إعانة الرسل و الصبر على القتل

بخلاف الرجل المذكور في سورة القصص فإنه إنما أشار إلى موسى عليه السلام برأى فيه سلامته و قد أطاعه موسى
فسلمه الله تعالى.

*راجع ذيل طبقات الحنابلة: لابن الجوزي قد نقل عن الوزير كثيرا من الفوائد و الاستنباطات في التفسير

فـ(قَالَ) لهم:ـ

(يَقَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) فأمرهم باتباعهم و نصحهم على ذلك و شهد لهم بالرسالة 20

ثم ذكر تأييدا لما شهد به و دعا إليه فقال:ـ

(**اتَّبِعُوا**) من نصحكم نصحا يعود إليكم بالخير

(**مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا**)

ليس يريد منكم أموالكم و لا أجرا على نصحه لكم و إرشاده إياكم فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.
*بقي أن يقال:- فلعله يدعو و لا يأخذ أجره و لكنه ليس على الحق

فدفع هذا الاحتراز بقوله:- (**وَهُمْ مُتَعَدُّونَ**)

لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه و لا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.
فكان قومه لم يقبلوا نصحه بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل و إخلاص الدين لله وحده **21**

فقال:- (**وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**)

و ما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة لأنه الذي فطرنى و خلقنى و رزقنى

(**وَالِيهِ تُرْجَعُونَ**)

و إليه مآل جميع الخلق فيجازيهم بأعمالهم

فالذى بيده الخلق و الرزق و الحكم بين العباد فى الدنيا و الآخرة

هو الذي يستحق أن يعبد و يشئ عليه و يُمجد دون من لا يملك نفعا و لا ضرا و لا عطاء و لا منعا و لا حياة
و لا موتا و لا نشورا **22**

و لهذا قال:- (**أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً**) استَفْهَامٌ إنْكَارٌ وَ تَوْبِيخٌ وَ تَقْرِيعٌ

(**إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبَ لَكَ تَحْنِي عَنِّي شَفَاعَتَهُمْ**) الَّتِي زَعَمْتُمُوهَا

(**شَيْئًا**) لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه فلا تغري شفاعتهم عني شيئا

*هَذِهِ الْإِلَهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا. فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ {فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ}

[يُونُس: 107]

وَ هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنَعَهُ

(**وَلَا يُنْقِذُونَ**) من الضر الذي أراده الله **بعبدة** **23**

(**إِنِّي**) إن عبدت آلهة هذا وصفها

(**إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ**) **24**

فجمع فى هذا الكلام بين نصحتهم و الشهادة للرسول بالرسالة و الاهتداء و الإخبار بتعيين عبادة الله وحده
و ذكر الأدلة عليها و أن عبادة غيره باطلة و ذكر البراهين عليها و الإخبار بضلال من عبدها
و الإعلان بإيمانه جهرا مع خوفه الشديد من قتلهم

فقال:- (إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ) الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ-أَي: الَّذِي أَرْسَلَكُمْ [أَي الرسل]

(فَاسْمَعُونَ) فَاسْمَعُوا قَوْلِي (أَي يا أهل المدينة)

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُهُ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ:أَي: فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ.
قَائِلًا:اسْمَعُوا قَوْلِي لِتَشْهَدُوا لِي مِمَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي إِنَّي قَدْ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ وَ اتَّبَعْتُكُمْ.
*فقتله قومه لما سمعوا منه و راجعهم بما راجعهم به.

*و قَالَ قَتَادَةُ: جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ وَ هُوَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".
فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَفْعَصُوهُ وَ هُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللَّهُ 25

ف_____ (قِيلَ) له في الحال:- (أَدْخِلِ الْجَنَّةَ)

(قَالَ)

منخبرا بما وصل إليه من الكرامة على توحيدهِ و إخلاصهِ و ناصحا لقومه بعد وفاته كما نصح لهم في حياته:

(يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي) أَي: بأى شيء غفر لي فأزال عرى أنواع العقوبات

(وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) بأنواع المثوبات و المسرات

لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم لم يقيموا على شركهم.

*قَالَ قَتَادَةُ:- لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا لَا تَلْقَاهُ غَاشًّا لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ

*تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لَهُ وَ مَا هَجَمَ عَلَيْهِ 27